الحكم العطائية بين الإنتاج والتلقي
(دراسة في عوامل الرواج)

اعداد
د/شيرين سعيد السيد الباجورى
مدرس بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

الملخص
تمثل الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري لونا مميزا من النصوص الصوفية استطاعت أن تخترق حاجز الزمان، والمكان، وطبيعة المتلقين؛ لتلقي بظلالها على عصور مختلفة، وأزمنة متنوعة، وتوجهات بشرية متعددة، وهذا الانتشار غير المعهود لنص صوفي كان وراء تلك الدراسة التي سعت للتعرف على أسباب رواجه وانتشاره، وذلك من خلال تتبع أثر البناء الأسلوبي والهيكلي على المتلقي، وبيان أثر الأسلوب الحجاجي على تلقي النص، وأخيرا التعرف على توقعات القارىء بين المعيارية والعدول.
الكلمات المفتاحية : الحكم ، الإنتاج ، التلقي

Abstract
The Atae'yya wisdom between production and reception
A study of diffusion factors)(
The Attae'yya wisdom of Ibn Ata Allah Al-Iskandari represents a distinctive type of Sufi texts; that were able to penetrate the barrier of time, place and the nature of the recipients to cast their shadows on different eras, diverse times and multiple human orientations. This unprecedented spread of a Sufi text was behind this study that sought to identify the reasons for its popularity and spread by tracing the effect of the stylistic and structural construction on the recipient, clarifying the effect of the argumentative style on the reception of the text, and finally identifying the reader's expectations between the normative and the deviant.
Keywords:
Wisdom- production- reception

مدخل

تمثل الحكم لونًا مميزًا من النثر يعبر عن خلاصة تجارب الحياة لذوي التجارب الخصبة والعقول الراجحة الذين يعتنون بتحليل المواقف،واستخراج العبر منها، وهذا يفسر سر تسميتها؛لأن الحكمة سميت بذلك(لِأَنَّهَا تَمْنَعُ مِنَ الْجَهْلِ)[١]، وتتسم الحكم بالذيوع والانتشار والرواج على نطاق زماني ومكاني ممتد، محافظة على هويتها اللفظية التي ولدت بها، وقد ساعدها على ذلك قصرها وإيجازها وحسن صياغتها، وهو ما يسر لها الحفظ والانتقال لتخترق حاجز الزمان والمكان، إلا أنه من اللافت للانتباه أن تنتشر مجموعة من الحكم تجاوزت المائتين وستين حكمة –وأعني بها حكم ابن عطاء الله السكندري- ، وأن يكثر تناول الدارسين لها من مختلف الأقطار، والتوجهات، والعصور، وأن يقع شبه إجماع على فضلها وأهميتها التربوية للنفوس في سيرها إلى الله، فهي نموذج تربوي وفني فريد من نوعه، ذاع صيته في أروقة العامة قبل العلماء، وطبقت شهرته الأفاق، ومن ثم كان لابد من وقفة متأنية للتعرف على أهم سمات الحكم العطائية التي جذبت نحوها جمهور المتلقين على اختلاف مشاربهم وأزمانهم، وأسهمت في رواجها، متجاوزة اختلاف العصور، وتنوع طوائف المتلقين.

وصاحب تلك الحكم هو ابن عطاء الله السكندري[٢]؛ حيث صاغ في حكمه خلاصة تجربته الصوفيه بأسلوب غاية في الرشاقة والدقة، وقد تناوبت على حكمه الشروح التي تجاوزت الخمسين شرحًا على مر العصور، منها شروح: ابن عجيبة، وابن عباد، وابن ذكري، والإمام زورق، والسندي، والخروبي، وسعيد حوى، والبوطي... وغيرهم، وكثرة هذه الشروح تشير إلى مدى القبول الذي حظيت به الحكم العطائية، وحسن تلقي العامة والخاصة لها، فما سر ذيوع تلك الحكم وانتشارها؟

وستركز الدراسة على أبرز الوسائل التي انتهجها ابن عطاء الله لجذب المتلقي، وضمان ذيوع حكمه وانتشارها، والخروج بتلك التجربة الذوقية الصوفية من إطار التذوق الذاتي إلى حيز الأثر التربوي، ومن إطار النص العام إلى إطار الخطاب الصوفي الموجه لكل قارئ، فيحدث أثرًا ملحوظًا في سلوكه، وفي سيره إلى الله مع اختلاف مشارب المتلقين وتباين طبائعهم وتوجهاتهم وأماكنهم وعصورهم،

فكيف استطاع ابن عطاء أن يكفل لنصه السيرورة على مدار العصور؛ ليظل نصًّا غضًّا تتناوله القرائح، وتتناوب عليه الشروح؟

وستتعرض الدراسة لأبرز سمات الحكم العطائية، محاولة الربط بين شيوع سمة معينة وأثر ذلك على تفاعل المتلقي مع النص،

---

[١]-معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مادة حكم.

[٢] - هو أبو الفضل تاج الدين أحمد بن عبد الكريم الجذامي المالكي السكندري (ت:٧٠٩ه)،جمع علومًا عدة من التفسير والحديث والفقه والأصول والنحو، كان من الصوفية المبرزين في عصره ينتمي لطائفة الشاذلية درَّس بالجامع الأزهر، وله مصنفات عدة منها: "التنوير في إسقاط التدبير"،و"تاج العروس إلى تهذيب النفوس"، و"القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد" و"لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن"، و"أصول مُقَدمَات الْوُصُول"، و"الطَّرِيق الجادة فِي نيل السَّعَادَة"، و"مُخْتَصر تَهْذِيب الْمُدَوَّنَة للبرادعي فِي الْفِقْه"، و"المرقى إِلَى الْقَدِير الأبقى"، و"مفتَاح الْفَلَاح فِي ذكر الله الْكَرِيم الفتاح"، وله أشعار رائقة أوردها المترجمون له. انظر ترجمته في الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين،بيروت، ط٥، ١٩٨٠م ،جـ١صـ٢٢١وما يليها، وكتاب الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م، جـ٨صـ٣٨، وترجمة ابن عطاء الله في مقدمة شرح الحكم العطائية:عبد المجيد الشرنوبي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م ، وانظر مصنفاته في هدية العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين: إسماعيل باشا البغدادي، مؤسسة التاريخ العربي، د.ن، د.ت، جـ١صـ١٠٣

وذلك من خلال ثلاثة محاور رئيسة هي:

- أثر البناء الأسلوبي والهيكلي على المتلقي .

- الأسلوب الحجاجي وتلقي النص.

- توقعات القارىء بين المعيارية والعدول.

أولًا: أثر البناء الأسلوبي والهيكلي على المتلقي

ويتغيا هذا المبحث دراسة أثر البناء الأسلوبي على المتلقي من جهتين: الأولى: على مستوى الحكمة الواحدة، والثانية: على مستوى النظام العام لترتيب الحكم، ذلك أن ثمة علاقة وطيدة بين كفاءة الشكل، وأنشطة الإدراك والتلقي[١]، وتفصيل ذلك على النحو التالي:

(أ)البناء الأسلوبي في بنية الحكم العطائية، إن أول ما يجذب المتلقي للنص المقروء هو البناء الأسلوبي له، ومن ثم فإن فاعلية القراءة واستمراريتها هي ثمرة ذلك البناء الذي استطاع أن يأخذ بمجامع عقل المتلقي وقلبه،ويساعده على مواصلة القراءة، وقد تجلى في النص عدة ظواهر أسلوبية كان لها أثر واضح في هذا الصدد أبرزها:

*العناصر الصوتية؛ حيث اعتنى ابن عطاء الله بالعناصر الصوتية عناية بالغة، خاصة التكرار الصوتي بمختلف صوره من سجع، وجناس، وتوازٍ تركيبي، وتكرار صرفي، وتكرار مفردات...؛ حيث بلغت نسبته(٩٠,٢%تقريبًا)من مجموع الحكم، وعلى رأسها السجع ونسبته (٧٣,٩% تقريبًا)، وهذه العناية بالجانب الصوتي تضفي موسيقى خاصة على حكمه، وهو ما يساعد على تذكر تلك النصوص وحفظها، فقد أشار علماء النفس إلى أن تذكر الإنسان للمقاطع التى تتسم بنظام موسيقي أكثر من تذكره للكلام الذي يفتقد تلك السمة[٢]، هذا فضلا عن الراحة النفسية والانسجام والتفاعل النفسي الذي يشعر به الإنسان عند قراءة نص متسق صوتيا، كما أن الحرص على النظام الصوتي يعد آلية من آليات الحجاج؛ حيث(يؤثر في المتلقي، ويوحي بما وراءه من دلالات معنوية)[٣]، فهو يمهد النفس للمعاني، ويشكل توجه المتلقين نحوها لاستشعارهم بانتظام الأصوات، فكيف ببناء المعاني! ومن ثم فإن العناية بالجوانب الصوتية في النص وسيلة من الوسائل التي ينتهجها المبدع ليضمن لنصه السيرورة والحفظ والاستمرارية، ونتوقف عند أبرز تلك العناصر.

يقول ابن عطاء الله في الحكمة(٤٥): (ما قل عمل برز من قلب زاهد، ولا كثر عمل برز من قلب راغب)[٤]؛ حيث نلاحظ الإيجاز الشديد والتكثيف والاعتماد على بنية التقابل،

كما تتجلى العناصر الصوتية فيها بوضوح، فقد ارتكزت على التوازي التركيبي بين الجملتين المكونتين للحكمة، وأبرز وظائف التوازي التركيبي كما يراها البلاغيون هي ضمان دوام الرسالة الأدبية في الذاكرة، إضافة لتحقيق الانسجام والتناسب فيها[٥]، فقد كرر قوله:(عمل برز من قلب)، وكرر صيغة اسم الفاعل(زاهد، راغب)، إضافة للاعتماد على صيغة الماضي ثلاثي الأصول(قل، كثر)، كما اختار لأواخر جمله حرفين متقاربين في الصفات، وهما: الدال والباء؛ حيث يتسمان بالجهر والشدة والاستفال

---

[١] -راجع في ذلك بلاغة الخطاب وعلم النص: د. صلاح فضل، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١، ١٩٩٦م، انظر صـ٢٢٧.

[٢] -عودة إلى الموسيقى: نعيم اليافي، انظر مجلة التراث العربي العدد ٢٥-٢٦ ، اتحاد الكتاب العرب ، تشرين وكانون الثاني(أكتوبر و يناير) ١٩٨٦م– ١٩٨٧م، (صفر وجمادى الأولى)، ١٤٠٧هـ .

[٣] -الخطاب الحجاجي في كتابات محمد عبد الله دراز، د.ذيب بن مقعد العصيمي،دار النابغة، طنطا،١٤٤١هـ، صـ٢٢٤ .

[٤] -لقد اعتمدت بصفة رئيسة على نسخة الحكم العطائية والمناجاة الإلهية للإمام تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري، صححها وعلق عليها: حسن السماحي السويدان،د.ن، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، يليها في المرتبة التالية الحكم العطائية للشيخ تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري، طبعة دار السلام، القاهرة والإسكندرية، مصر،ط٣ ، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م، وبينهما اختلافات طفيفة .

[٥] -جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني: صالح ملا عزيز، دار الزمان للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠١٠م، انظر صـ٣٠٣.

والانفتاح والقلقة، فبينهما تقارب قوي في الصفات، وهذه العناصر الصوتية أسهمت في توفير إطار صوتي متناسق، وهو ما شكل قالبًا سهل حفظ النص وتداوله.

بل إن ابن عطاء الله بالغ في العناية بالجوانب الصوتية، فنلاحظ التزامه في السجع بأكثر من حرف فيما عرف بلزوم ما لا يلزم، يقول في الحكمة(٤٨): (من علامات موت القلب: عدم الحزن على ما فاتك من الموافقات، وترك الندم على ما فعلت من الزلات)؛ حيث التزم الألف والتاء في السجع[١]، والألف حرف مد، وقد أشار علماء الأصوات إلى تميز الألف عن أختيها بأنها أمدهن صوتا، وأبعدهن مخرجا[٢]، وهو ما يضفي وضوحا سمعيا على الحكمة يعادل الضعف الصوتي الذي تتسم به التاء؛ لأنها من حروف الهمس.

بل قد يلتزم أكثر من حرفين أحيانًا، ففي الحكمة(٥١) التزم ثلاثة أحرف(شهوده، وجوده)، وكذا في الحكمة(٥٤)(وجودك، شهودك)، بل قد تتشابه أصوات نهايات الجمل بصورة أكبر لتشكل غالبية الحروف، كما في الحكمة(٦٣) يقول: (من لم يقبل من الله بملاطفات الإحسان، قيد إليه بسلاسل الامتحان)، فقد اشتركت نهايات الجمل في خمسة أحرف، وهذه الرغبة في التقارب الصوتي بين الفواصل قادت المصنف إلى الجناس بين الفواصل، كما نلحظ في لفظ(وارد) في الحكمة(٥٢) يقول: (إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردًا)، فـ(الوارد) الأول يقصد به أن أعمال الخير التي يفعلها السائر إلى الله، يكون ثمرتها زيادة الإيمان بالقلب، وهذا الإيمان هو الوارد الأول في النص، أما(واردًا) الثانية فيقصد به الورود على الله، والتوجه إليه.

وقال في الحكمة(٣٢):(تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب)، فبين(العيوب)و(الغيوب)جناس ناقص شكل ترابطا صوتيا بين أركان الحكمة.

والجناس له أهمية بالغة في حفظ الخطاب وتذكره، وكذلك في نشوة المتلقي عند سماعه نتيجة للحرص على موسيقى مميزة للنص، وهذه النشوة تسهم بصورة واضحة في متابعة المتلقي للنص دون ملل أو ضجر، فالمتلقي حين يفاجأ بكلمات تتشابه في نظم حروفها تتشكل لديه الرغبة في الوقوف على الفروق الدلالية بينها، ومما يحسن الإشارة إليه في هذا الصدد ما ذكره الجرجاني من الفرق بين الجناس المستحسن وغير المستحسن بأن الأول يخدعك عن الفائدة، وتظن به التكرار، وقد أعطى لك الفائدة، يقول: (ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة، وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة ووفّاها)[٣]، ومن ثم وظف السكندري السجع ليلفت انتباه القارىء للبنية العميقة للنص، هذا فضلا عن كونه يربط نظم الحكمة أيضًا من خلال تقارب التشكيل الصوتي، فقد ربط الجناس أول النص بآخره بطريقة دائرية في الحكمة(١٠٦) حين قال: (ومن ظن انفكاك لطفه عن قدره؛ فذلك لقصور نظره)، فقد التقت (ظن) و(نظر) في حرفي النون والظاء، وهو ما أسهم في ربط طرفي النص صوتيًا، وبذلك يسهل تذكر المتلقي لاستهلال النص وخاتمته، ويدفعه نحو التفكر في الفارق الدلالي بين المتشابهات الصوتية الممثلة في الجناس، ونحو قوله في الحكمة(١٧٣): (إنما يذكر من يجوز عليه الإغفال، وإنما ينبه من يمكن منه الإهمال)، فالجناس الناقص بين(إغفال وإهمال)، إضافة إلى وقوع نوع من التوازي التركيبي، شكل موسيقى خاصة للحكمة، يسرت على المتلقي تذكرها، وأسهمت في تشكيل الدلالة، وكذلك قوله في الحكمة(١١١): (ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه)، فالجناس الناقص بين (تخصيص) و(تخليص) أضفى إيقاعا صوتيا ربط بين الجملتين المكونتين للنص، وسهل تلقي الجمهور لتلك الجمل الممسوقة المترابطة، ثم إن الوقوف على كلمة التخصيص،

---

[١] - ومن النماذج التي تتوفر فيها تلك الخاصية الحكم:(٥٠، ٥٣، ٥٦)

[٢] -الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، تحقيق:محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٥ ، ٢٠١١ م ،جـ٣صـ١٥٧ .

[٣] - كتاب أسرار البلاغة: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، المؤسسة السعودية، مصر، ط١ ،١٤١٢ه-١٩٩١م، صـ٧ وما يليها.

والمقصود بها تخصيص الله بعض العباد بالكرامات ونحوها، هو الذي يجعل الذهن يتوقع دلالة التخليص،ويقصد بها كمال تخليصهم من شهوات النفس وحظوظها، إذا فهذا التقارب في بناء حروف المباني شكل ترابطا ذهنيا بين المعنيين، فالانتقال من لام التخليص هو طريق الدخول في صاد التخصيص.

ومن صور الحرص على موسيقى النص طباق السلب، وهذا الإيقاع التكراري التقابلي يسهم في حفظ النص وسيرورته، وهو أيسر في استرجاعه من الطباق المعنوي للاشتراك في حروف المباني، كما أنه يبرز المقابلة في الجانب الدلالي من خلال توظيف العناصر الصوتية التي تجذب انتباه المتلقي، وتساعده على الانتقال من البنية السطحية للنص الممثلة في الجانب الصوتي إلى البنية العميقة الممثلة في التقابل الدلالي، وذلك منذ القراءة الأولى للنص دون أن ينفر المتلقي من تلك النقلة، ويشعر بثقل الخطاب الصوفي، كما أن هذا التقابل المعتمد على طباق السلب يزيد من تركيز المتلقي لإدراك البنية العميقة للدلالة.

وتختلف مواضع هذا النمط من الطباق، فقد يقع بين نهايات الجمل كما في الحكمة (٨٦)؛ حيث يقول: (إن أردت أن يكون لك عز لا يفنى؛ فلا تستعزن بعز يفنى)، وهنا يعد صورة من صور رد الإعجاز على الصدور التي تشكل ربطًا دائريًا للنص، كما أن موقعه في فواصل الكلام خاصة يرجع إلى أنها آخر ما يقرع سمع المتلقي، ومن ثم فالعناية بها وسيلة تثبيت للنص في ذهن المتلقي.

وقد يقع طباق السلب في بداية النص، والبدايات دائما موضع اهتمام المتلقي وانتباهه؛ لأنها أول ما يقع على سمعه، فله ميزة خاصة في تنبيه المتلقي للدلالة منذ الوهلة الأولى، يقول في الحكمة(٥٨):(لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك، وافرح بها لأنها برزت من الله إليك)، ونحو قوله في الحكمة(١٠٧):(لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك)، ويقول في الحكمة(٦٤):(من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقلها) .

وقد يقع طباق السلب أيضا في أثناء الجملة يقول في الحكمة(١٧١): (إلى المشيئة يستند كل شيء ولا تستند هي إلى شيء)، وقد أضفى طباق السلب مع تكرار(إلى شيء) إيقاعا تكراريا مميزا للحكمة أسهم في التأكيد على الدلالة وتنبيه المتلقي لأهميتها.

*البناء المعجمي للحكم، ويتسم بعدة سمات،أبرزها ظهور المعجم الصوفي في الحكم العطائية؛ وهو ما ميز لغة ابن عطاء الله بخصوصية مفرداتها وانسجامها، كما أضفى عليها نوعا من الغموض لدى المتلقي غير الصوفي، خاصة وأنها حُمِّلت بدلالات جديدة،

فنجد مفردات: (مورد، وارد، العارف، أحوال، إشراق، مكونات، هواتف، مراقبة، سرائر، عطاء، استشراف، أسرار،...إلخ)؛ حيث أدى توظيف تلك المفردات على مدار الحكم العطائية إلى تناغم واضح بين نصوص الحكم بجملتها؛ لتندرج تحت فن واحد هو الأدب الصوفي، على الرغم من صعوبة المعجم الصوفي عموما، واتسامه بالغرابة عند كثير من الصوفية نحو ابن عربي وغيره، والسبب في ذلك يرجع لذاتية التجربة الصوفية، ولعجز الحروف عن استيعاب تلك التجربة الروحانية، فالكلمات قاصرة أمامها من وجهة النظر الصوفية؛ وهو ما يفسر غرابة توظيف المفردات في التجربة الصوفية، حيث استخدمت مفردات العشق ونحوها عند بعض الصوفية مثلا للتعبير عن الحب الإلهي،مما أدي لغموض الدلالة وحاجتها لمزيد بيان، إلا أن ابن عطاء الله اختار مفردات مألوفة للجمهور ليصوغ بها نصه، وحمَّلها بدلالات جديدة تتفق مع النص الصوفي، ولا تصادم الذوق العام، مما مثل سهولة واضحة في حفظ تلك النصوص وسيرورتها، وسهل وصول الدلالة للمتلقي دون أدنى حرج، وقد توقفت الدراسة عند بعضها، ولذلك مزيد تفصيل في أثناء الدراسة.

*البناء التركيبي بين الإحالة والتكرار، وقد تخيرت الدراسة هذين العنصرين تحديدا لأنهما قد يبدوان متناقضين؛ فالأول منهما وسيلة للاقتصاد اللغوي، والثاني طريقة من طرق الإطناب، وعلى الرغم من ذلك استطاع ابن عطاء الله توظيفهما بحيث يسهمان في رواج حكمه، وبالنسبة للإحالة فإنها تصنع

ترابطًا معنويًا، وتماسكًا دلاليًا[١]، كما أنها تحقق الاقتصاد اللغوي من خلال الإشارة إلى ما سبق، وتجنب التكرار[٢]، وتتجلى الضمائر في غالبية الحكم العطائية بصورة واضحة، ففي الحكمة(٤) يقول: (أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك.. لا تقم به لنفسك)، نجد تسعة ضمائر في بضع مفردات، منها ستة ضمائر للمخاطب وثلاثة للغائب، وهو ما يربط نسيج الحكمة بوشائج قوية، وييسر على المتلقي تذكر الكلام المترابط، كما أن صيغة الخطاب تشكل حوارا مع المتلقي، ولا تجعله بمعزل عن النص خاصة حين تتنوع ضمائر الخطاب بين المستتر في(أرح وتقم)، والمتصل في(غيرك وعنك ولنفسك)، وهذا التنوع يدعم بتنوع آخر في صيغ الفعل الممثل في الأمر في(أرح)، والمضارع في(تقم)، وبين اتصال الضمائر بالاسم في(نفسك وغيرك)، والحرف في(عنك،به)، وهذا التنوع لا يشعر المخاطب بثقل الخطاب الصوفي، كما يتفادي الملل الذي قد ينتابه من رتابة الحكم، فالنفس عموما تستثقل الخطاب الموجه من طرف واحد، خاصة حين يكون نصحا صرفا، ومن ثم كان هذا التنوع مشعرا بعدم الرتابة في الخطاب, وقد أشار النقاد إلى أن الكلام الذي تتوالى فيه الضمائر وحيدة النوع نحو ضمير المتكلم مثلا لا يستطيبه المتلقي، وإنما يحسن التنويع[٣] .

وفي الحكمة (٤٣) يقول: (لاتصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله)؛ حيث يربط مداميك النص خمسة ضمائر، منها: ثلاثة للمخاطب، وضميران للغائب، إضافة للاسم الموصول(من) الذي يمثل صورة أخرى من صور الإحالة تسهم في الاقتصاد اللغوي، مما يسهل حفظ النص ورواجه،

وهنا أيضا نلاحظ التنوع مع الاقتصاد اللغوي،فهناك ضمائر مستترة, وأخرى متصلة ظاهرة، وضمائر للغائب وأخرى للمخاطب، كما تتصل بعض الضمائر بالفعل وبعضها بالاسم، وإذا كان الخطاب الصوفي عموما يتسم بأنه تجربة ذاتية فضمير المخاطب فيه هو خطاب للنفس قبل أن يكون للغير، فمبدع النص إذا يهدف من تنويع الضمائر في نصه إلى دفع السآمة عن المتلقي، وإشراكه في الخطاب، من خلال الضمير المعبر عنه، إضافة إلى ضمير الغائب الذي ينوع به السكندري حديثه.

وقد تجلت أيضًا في الحكم صورًا أخرى من صور الإحالة، وهي: الأسماء الموصولة؛ حيث بلغت نسبتها(٢١,٩%)، والإشارة بنسبة(٣,٧%)[٤]، إذا فنحن أمام نص يحرص على التكثيف الدلالي والاقتصاد اللغوي، ومعلوم أن النصوص القصيرة أسهل في التداول والحفظ من غيرها.

وعلى الجانب الأخر يلعب التكرار دورا بارزا في رواج النص، وإضفاء الحوارية عليه، حيث يسهم في تأكيد الدلالة؛ لأن فيه إلحاحا على المعنى، كما يسهم في حضور المكرر في حس المتلقي وعقله، وكذلك يستدرك التكرار ما تفوته الذاكرة نتيجة انعدام التركيز أو ضعفه[٥]، إضافة إلى أن امتداد عنصر من أول النص إلى آخره يربط بين لبنات النص[٦]، حيث أشار الدكتور الفقي إلى أهميته في تحقيق

---

[١] -بحث الإحالة في نحو النص دراسة في الدلالة والوظيفة: د.أحمد عفيفي ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية بعنوان"العربية بين نحو الجملة ونحو النص"، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٤٢٦ه- ٢٠٠٥م ، انظرجـ٢صـ٥٢٥

[٢] -علم لغة النص النظرية والتطبيق: د.عزة شبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م، انظر صـ١٢٠، في لسانيات النص: أيمن محمود موسى، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠١٥م، انظر صـ٤٥ وما يليها، ونحو النص دراسة في الدلالة والوظيفة ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية: انظرجـ٢صـ٥٢٥

[٣] -منهاج البلغاء وسراج الأدباء: أبو الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ط٣، ١٩٨٦م، انظر صـ٣٤٧ وما يليها.

[٤] -ونسبة الإشارة والموصول مأخوذة عن رسالة بعنوان"التماسك النصي في بنية حكم ابن عطاء الله السكندري": محمد محمود عيسى محاسنه، مخطوط رسالة ماجستير بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة آل البيت، الأردن، ١٩٩٣م، انظر صـ٩٤.

[٥] -جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني: انظر صـ٣٠٦

[٦] -التماسك النصي في شعر علي بن الجهم دراسة نحوية دلالية: سميرة محمد إدريس عمور، مخطوط رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم ، القاهرة ، ٢٠١٢م ، انظر صـ ٢٥٦ .

العلاقات المتبادلة بين العناصر المكونة للنص[١]، ومن ثم يسهم في تذكرها، ومن نماذج التكرار قوله في الحكمة(١٣٢): (أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته)؛ حيث آثر ابن عطاء الله تكرار الحلم مضافًا للضمير العائد للرب سبحانه(حلمه)؛ لدلالته المركزية ذلك أن مقصود النص هو بيان حاجة العبد لحلم مولاه-عز وجل-عليه في طاعته قبل معصيته، لأن الطاعة تورث العز والرفعة، فيعظم صاحبها في عين الناس، وللنفس فيها شهوة ومتعة، بخلاف المعصية،فإنها تورث الذل والانكسار، ويسقط صاحبها من عين الخلق، (فكان العبد في حال طاعته لربه أحوج إلى حلمه وعفوه منه في حال معصيته؛ لأن الطاعة التي ينشأ عنها العز والاستكبار أقبح من المعصية التي تورث الذل والافتقار)[٢]، إضافة لتكرار أسلوب الشرط المرتكز على الأداة ذاتها(إذا) التي تستخدم مع الشرط المتحقق الوقوع، لتأكيد الدلالة التي سلفت الإشارة إليها، والتكرار يسهم في إقناع المتلقي؛ حيث يساعد على التبليغ والإفهام وترسيخ الأفكار، حيث إن ترداد الأفكار يوضح مراميها[٣]، ومن ثم يعد من آليات الحجاج أيضا،

ونلاحظ على النص السابق كثافة الضمائر وتنوعها؛ حيث بلغت ثمانية ضمائر، أسهمت في نفي الملل عن المتلقي، وإشراكه في بناء الدلالة، وساعدت على الاقتصاد اللغوي، إضافة للمقابلة بين(أطعته وعصيته)التي تبني الدلالة في ذهن المتلقي من خلال حضور النقيضين معا فترسخها.

وقوله في الحكمة(٢٥): (ما توقف مطلب أنت طالبه بربك،ولا تيسر مطلب أنت طالبه بنفسك) إن التركيز على مادة(طلب)، وذكرها أربع مرات يوحي بمركزيتها في بناء الدلالة، إضافة لتكرار ضمائر المخاطب المنفصلة(أنت)، والضمائر المتصلة الممثلة في الكاف في(بربك، بنفسك)، والمستترة في(طالبه)، وضمير المخاطب وسيلة يتوسل بها المبدع لحوار المخاطب وإشراكه في النص، إضافة للمقابلة التي نلحظها بين حال الطلب بالرب، وحال الطلب بالنفس؛ ليرسخ الدلالة في النفس من خلال استحضار النقيض الذي ينفر المتلقي من الطلب بغير الله حتى ولو كان بالنفس.

وهكذا وظف السكندري العناصر الصوتية والمعجمية والتركيبية لضمان حفظ الحكم وسيرورتها وتخطيها لحاجز الزمان والمكان.

(ب)**البناء الهيكلي والمتلقي النموذجي:** إن الحكم العطائية تتكون من مائتين وأربعة وستين حكمة، وكل حكمة منها تعد نصًا مستقلًا بذاته، لكن اللافت للانتباه أن غالبية شراح الحكم -وهم من عنيتهم بالمتلقي النموذجي- اعتمدوا ترتيب المصنف للحكم، فلم يغيروا ترتيبها في شروحهم، وهو ما يعني أن ترتيبها له دلالته الخاصة لديهم، وقد تباينت طرائقهم في الشرح، فقد شرح الشرنوبي وابن عباد والسندي كل حكمة بصورة منفصلة ومتتابعة، كما أوردها المصنف[٤]، وهو ما يدل على رؤيتهم للعلاقة بين الحكم المتتابعة، وأنها مبنية على بعضها متصلة دلاليًا، في حين نظمها البعض في صورة أبيات شعرية،

---

[١] - علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: د. صبحي إبراهيم الفقي، دار النابغة، القاهرة، الإسكندرية، ط١ ، ١٤٣٦ه-٢٠١٥م ،انظر صـ٣٤٥ .

[٢] - إيقاظ الهمم في شرح الحكم: العارف بالله أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، تقديم ومراجعة : محمد أحمد حسب الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م ،صـ٣٠٩ ، وانظر المعنى نفسه في حكم ابن عطاء الله شرح العارف بالله الشيخ زورق، تحقيق: الإمام عبد الحليم محمود، مطابع الشعب، القاهرة، ١٤٠٥ه-١٩٨٥م، انظر صـ١٦٩

[٣]-الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط٢، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م، انظر صـ١٦٨، والصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها:أبو الحسن بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي، تحقيق د.عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان ،ط١، ١٤١٤ه-١٩٩٣م، انظر صـ٢١٣

[٤] -شرح الحكم العطائية: عبد المجيد الشرنوبي، وشرح الحكم: محمد بن إبراهيم المعروف بابن عباد النفزي الرندي على متن الحكم للإمام المحقق: أبي أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندري، تحقيق: عبد الله الشرقاوي، دار الفكر، د.ت، د.ن، وشرح الحكم العطائية: محمد حياة السندي المدني، تحقيق: نزار حمادي، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م .

وضم إليها بعض الشروح الواردة عليها كما فعل البريفكاني[١]، إلا أنه حرص على ترتيب ابن عطاء الله أيضا، وقسم آخرون من أمثال زورق وابن عجيبة كتبهم خمسة وعشرين بابًا بحسب فصول الحكم الخمسة والعشرين، ووضعوا لكل حكمة عنوانًا، وشرحوها بالترتيب كما رتبها ابن عطاء الله[٢]، وهناك فريق آخر انتهج منهجًا مغايرًا؛ حيث تجاوز سعيد حوى أسوار الفصول؛ ليضم بعضها إلى بعض تحت عناوين مشتركة، إلا أنه حافظ على ترتيب الحكم أيضًا، ولنتوقف عند نموذجين من الشراح.

النموذج الأول لزورق؛ حيث تنبه للعلاقات الدلالية بين الحكم، ونختار مثالًا على ذلك شرحه للفصل الرابع عشر؛ حيث وضح أن الحكمة الأولى في هذا الفصل ذكر ابن عطاء الله فيها المعنى، ثم عاد فبينه فيما تلاها، فقال في الحكمة(١٣١): (لولا جميل ستره؛ لم يكن عمل أهلا للقبول)، ثم عاد فبين حاجة العبد لستر الله عليه في حال الطاعة في الحكمة(١٣٢)، فقال: (أنت إلى حلمه إذا أطعته أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته)، ثم ذكر أن من حلم الله ستره على عباده، وستره يكون في الواقع والمتوقع،

ومن ثم قال في الحكمة(١٣٣): (الستر على قسمين: ستر عن المعصية وستر فيها؛ فالعامة يطلبون من الله تعالى الستر فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق، والخاصة يطلبون الستر عنها خشية سقوطهم من نظر الملك الحق)، ثم بين في الحكمة(١٣٤) أن إكرام الخلق للعبد إنما هو لجميل ستر الله على عباده، فقال: (من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره، فالحمد لمن سترك، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك)، ثم عاد فبرهن على ذلك المعنى في الحكمة(١٣٥)، فقال: (ما صحبك إلا من صحبك وهو بعيبك عليم، وليس ذلك إلا مولاك الكريم)، وذكر برهانًا آخر فقال: (خير من تصحب: من يطلبك لا لشيء يعود منك إليه)، وكما أن صحبة الخلق لا عبرة بها فكذلك الدنيا، وهو ما ذكره ابن عطاء الله في الحكمة(١٣٦) فقال: (لو أشرق لك نور اليقين، لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا وقد ظهرت كسفة الفناء عليها)، وعلى هذا الدنيا ناقصة زائلة، وكذلك الخلق لا اعتماد ولا استقلال لهم، فالانشغال بهم تعلق بالوهم، ومن ثم قال في الحكمة(١٣٧): (ما حجبك عن الله وجود موجود معه-إذ لا شيء معه-ولكن حجبك عنه توهم موجود معه)، وبحسب هذا فالنظر لصفات الله يقضي باضمحلال مكوناته، فلا ثبات للخلق مع ظهور آثار الحق، وقد عبرت عن ذلك الحكمة(١٣٨)، وفيها: (لولا ظهوره في المكونات ما وقع عليها وجود إبصار، ولو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته)، فإذا ظهر الله لم يكن لأحد الظهور معه، كما ذكر في الحكمة(١٣٩)؛ حيث قال: (أظهر كل شيء لأنه الباطن، وطوى وجود كل شيء لأنه الظاهر)، ثم إنه لما ذكر أنه لا يصح ظهور شيء مع ظهوره؛ لاستتاره في وجوده، وعدم استقلاله، ذكر أن دلالة المخلوقات بما فيها من حكمه، وحكمته لا لأعيانها لعدم جدوى ذلك؛ لذا قال في الحكمة(١٤٠): (أباح لك أن تنظر ما في المكونات، وما أذن لك أن تقف مع ذوات المكونات (قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ)يونس(١٠١)، فبقوله: (انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ)فتح لك باب الإفهام، ولم يقل:(انظروا السماوات)؛ لئلا يدلك على وجود الأجرام)، ثم أجمل المعنى في الحكمة الأخيرة في الفصل فقال: (الأكوان ثابتة بإثباته، وممحوة بأحدية ذاته)[٣]، وهكذا ترابط البناء الكلي للفصل الرابع عشر عند الإمام زورق.

بل إن الإمام زورق أدرك المناسبة بين الفصول وبعضها، فيقول في خاتمة الفصل(١٣)، محاولًا الربط بين الحكمة الأخيرة فيه رقم(١٢٩)التي تقول: (لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك، ومحو دعاويك؛ لم تصل إليه أبدًا، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه؛ ستر وصفك بوصفه، وغطى نعتك بنعته، فوصلك إليه بما منه إليك، لا بما منك إليه)؛ حيث ربط ذلك بالحكمة التالية لها في الفصل الرابع عشر، وهي قوله: (لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلًا للقبول)،

---

[١] -شرح الحكم العطائية المسمى بـ(تلخيص الحكم): نور الدين البريفكاني، تحقيق: محمد أحمد مصطفى الكزني، الناشر العربي، القاهرة، ١٩٨٠م.

[٢] - انظر حكم ابن عطاء الله شرح العارف بالله الشيخ زورق، وإيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة.

[٣] - حكم ابن عطاء الله شرح العارف بالله الشيخ زورق: صـ١٦٩ وما يليها.

فقال: (خاتمة هذا الباب مع الذي يليه ظاهر المناسبة؛ لأنها إذا كانت الدعاوى والمساوىءلا تنقضي، فليس إلا جميل ستره)[١]، وعلى هذا يمكننا القول أن الإمام زورق أدرك العلاقات الدلالية التي تربط بين حكم الفصل، والمناسبة بين فصول الحكم وبعضها.

والنموذج الثاني لسعيد حوى؛ حيث قسم المعاني التي تناولتها جميع الحكم إلى ثلاثة محاور رئيسة؛ **المحور الأول: المقدمات والمهيجات والبواعث على السير إلى الله**، وتحته ستة فصول: الفصل الأول: في بدايات السير إلى الله(١-١٠)، والفصل الثاني: العزلة المرحلية وضرورتها للسائرين(١١-١٧)، والفصل الثالث: آداب العزلة(١٨-٢٥)، والفصل الرابع: الحث على إحكام البدايات، ورفع الهمة نحو النهايات(٢٦-٣١)، والفصل الخامس: مزالق السير إلى الله، والتحذير منها(٣٢-٣٥)، والفصل السادس: معالم وموازين ووصايا(٣٦-٤٢).

والمحور الثاني: توجيهات للمريدين، وفيه أحد عشر فصلًا: الفصل الأول: بدايات السير إلى الله(٤٣-٤٧)، والفصل الثاني: آداب السالك إلى الله(٤٨-٥١)،

والفصل الثالث: واردات القلب وأسبابها(٥٢-٥٧)، والفصل الرابع: موقف المريد من طاعته(٥٨-٥٩)، والفصل الخامس: آداب السالك إلى الله، وخطورة تركها(٦٠-٦٦)، والفصل السادس: توجيهات للمريدين(٦٧-٧٢)، والفصل السابع: قواعد وموازين يتعرف بها المريد على حاله(٧٣-٨٢)، والفصل الثامن: التعرف على الله والفهم عنه(٨٣-١٠٦)، والفصل التاسع: تعظيم الربوبية، وامتثال أمر الله في الظاهر والباطن(١٠٧-١١١)، والفصل العاشر: الأوراد اليومية وحياة القلب(١١٢-١٢٠)، والفصل الحادي عشر: خاتمة آداب المريدين، والوصول إلى مقام البقاء(١٢١-١٤١).

والمحور الثالث: توجيهات ابن عطاء للعارفين والصديقين والأولياء والمرشدين، وفيها اثنى عشر فصلًا: الفصل الأول: آداب العارفين والربانيين(١٤٢-١٥٠)، والفصل الثاني: تصحيح ونصائح لمن تحقق بالولاية(١٥١-١٦٣)، والفصل الثالث: التفريط في حقوق الربوبية وخطورته على العارفين(١٦٤-١٨٠)، والفصل الرابع: آداب العارفين في الكلام(١٨١-١٨٩)، والفصل الخامس: آداب الشيوخ مع المريدين، وحقوق الربوبية عليهم(١٩٠-٢٠٩)، والفصل السادس: توجيهات للعارفين لإنضاج هممهم(٢١٠-٢٢٤)، والفصل السابع: أخطار التطلع إلى الدنيا وزخرفها(٢٢٥-٢٣٠)، والفصل الثامن: موقف العارف من إعراض الناس عنه(٢٣١-٢٣٧)، والفصل التاسع: أعظم الآداب من المريدين التواضع(٢٣٨-٢٤٢)، والفصل العاشر: المحبة وآدابها(٢٤٣-٢٤٩)، والفصل الحادي عشر: أنواع السير إلى الله(٢٥٠-٢٥١)، والفصل الثاني عشر: مراتب الذكر والفكر(٢٥٢-٢٦٤).

فالعلاقة بين أركان التقسيم الثلاثي هي الانتقال المرحلي في السير إلى الله من بداية السير، ثم الوصول لمرحلة المريد، والأمور التي تخصه، وأخيرًا التوجيهات التي تخص خاصة المريدين من العارفين والصديقين والأولياء والمرشدين .

وكما يتجلى من النماذج السابقة فإن قسمًا كبيرًا من الشراح أدرك العلاقات الدلالية بين الحكم العطائية بعضها ببعض، بل تجاوزوا ذلك للمناسبة بين الحكم داخل الفصل الواحد وبين الفصول وبعضها، وهذا الاتصال الدلالي في البناء الهيكلي للحكم له أثره على المتلقي، فإن الاحتفاظ بالمعلومات المترابطة نحويًا ودلاليًا أيسر من الاحتفاظ بالمعلومات غير المترابطة[٢]، وهو يعد من تلك الجهة من أسباب رواج الحكم العطائية وسهولة حفظها وتداولها..

---

[١] -السابق: صـ١٦٦، وإيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة: انظر صـ٣٠٧.

[٢] -علم النص مدخل متداخل الاختصاصات: تون أ. فان دايك، ترجمة وتعليق: د. سعيد حسن بحيري، دار القاهرة، القاهرة ، ط٢، ٢٠٠٥م، انظر صـ٢٧٧.

ثانيًا: الأسلوب الحجاجي وتلقي النص

والمقصود بدراسة الأسلوب الحجاجي هو الوقوف على التقنيات التي انتهجها السكندري للوصول بأذهان المتلقين للتسليم بما يقول، ومن ثم تغيير سلوكهم بما اقتنعوا بصحته، وسلموا بأحقيته، والحجاج وسيلة لإشراك المتلقي في النص، ودمجه في لبناته، وذلك(أن القارىء إذا صار جزءًا من الحدث وقع في شراك اللغة، فلن تكون ثمة حاجة لديه للبحث عن المعنى، وإذا وقع التأثير انتفت الحاجة إلى التفسير)[١]، وتتجلى مظاهر الأسلوب الحجاجي في نصوص الحكم في أشكال عدة أبرزها:

(أ)الاعتماد على صيغة الخطاب بصورة جلية، وقد شكل ذلك(٥٣,٤%) تقريبا من مجموع الحكم العطائية، وإذا كنا نعترف بذاتية التجربة الصوفية فإن صيغة الخطاب هنا محمولة على ابن عطاء الله السكندري ذاته الذي يخاطب نفسه بمكنون تجربته الصوفيه، وهو ما عرف في البلاغة العربية بالتجريد، وترجع بلاغة هذا الأسلوب إلى إيهام المتلقي بمركزيته في التجربة الإبداعية، في محاولة لدمجه داخل نسيج الحكمة، وجعله عنصرًا رئيسا فيها،

(وهو ما يضمن حضور الخصم أو حججه في النص سواء أكان الحضور إمكانيًا أو مفترضًا)[٢]، كما أنه يشعر المتلقي بالألفة مع النص على الرغم من ذاتية التجربة، وهو يتصل بالجانب النفسي للمبدع أيضا؛ حيث يوشح التجربة الفنية بالمصداقية من خلال الخطاب الذي يضفي السمة الحوارية على تجربة ذوقية من أخص التجارب الذاتية التي يمر بها الإنسان، وهو ما يجعل المتلقي يتقبلها بمزيد من الحفاوة؛ لأنها خرجت من عباءة الذات إلى حيز الآخر.

يقول في الحكمة(٤٠): (إن لم تحسن ظنك به لأجل جميل وصفه، فحسن ظنك به لأجل معاملته معك. فهل عودك إلا حسنا؟! وهل أسدى إليك إلا مننا؟)، تتجلى مظاهر الحجاج في الحكمة في عدة صور منها: صيغة الخطاب التي أشعرت المتلقي بقرب الخطاب منه؛ لأنه موجه إليه، فهو عنصر من عناصر النص، وهو مقصود بذاته، ومن ثم عليه أن يستبطن ذاته لينظر في معاملة الله معه، ونعمه التي أسداها إليه، ليسكب ذلك في نفسه حسن الظن بالله، وأن آلاء الله عليه تشير إلى جميل صنيعه بعبده، وهو ما لم يكن ليحدث بغير صيغة الخطاب، وقد دعم السكندري أسلوب الخطاب بأساليب حجاجية أخرى منها: طريقته في بناء الدلالة التي اعتمدت على الشرط، فجعلت المتلقي ينتظر الجواب متلهفا لمعرفته؛ لأنه خطاب خاص له، فكل ما فيه يتسم بالخصوصة، وقد وظف(إن)الشرطية التي تستخدم للشرط المشكوك فيه؛ ليوحي بأن عدم وقوع حسن الظن بالله مشكوك فيه أصلا، وذلك لجميل أوصافه، فإن لم يحسن العبد ظنه بربه لجميل أوصافه، فليحسن ظنه بربه لحسن معاملة الله معه، ثم أسلوب الاستفهام الموجه للمخاطب أيضا، لكنه لا ينتظر جواب المتلقي، وإنما يوقفه أمام ذاته ليقررها بالحقائق التي لا يستطيع الانفكاك عنها، وهي أن الحق سبحانه لا يأتي إلا بالخير، وكذلك أسلوب القصر الذي ورد في صورة الاستفهام بغرض نفي أن يأتي من الرب إليك إلا الخير، وأسلوب القصر يعد من العوامل الحجاجية في اللغة، وطاقته الحجاجية تكمن في حصره لفاعلية الحجاج في وجهة واحدة، مما يوجه المتلقي نحو النتيجة[٣]، وكذلك بناء الدلالة من خلال التعليل الذي يخاطب العقل، ويسوق له الأمور مسببة ليقتنع بها، إضافة لتكرار بعض المفردات لتأكيد الدلالة للمتلقي، والتركيز عليها نحو تكرار: (مادة حسن، وظن، ولأجل، وهل...).

---

١ -بحث بلاغة الخطاب القرآني، وأثرها في المتلقي: عاشور توامة، ضمن مجلة قراءات، قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، بسكرة، الجزائر، العدد الثامن، ٢٠١٥م، صـ ١٨٥.

٢ -بحث الحجج الجاهزة وطاقاتها الإقناعية، نقائض جرير والفرزدق أنموذجًا: فريدة بن عاشور، ضمن مجلة مباحث الحجاج بين التنظير والإجراء بحوث علمية محكمة في الحجاج، مجلة مختبر اللغة والتواصل، بلغيزان، الجزائر، ٢٠١٥م، صـ ١٩٣ .

٣ -الخطاب الحجاجي آلياته وظائفه في مقالات نبيل عبد الفتاح: إسلام صلاح الدين محمد، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٢٢م، انظر صـ٩١ وما يليها

(ب)العناية بالأفعال اللغوية، أو ما يعرف في البلاغة العربية بالأسلوب الإنشائي، ونتوقف عند الأسلوب الأبرز وهو: الاستفهام؛ حيث حرص ابن عطاء على توجيه تساؤلات للمتلقي بهدف استثارته ذهنيًا، واستخراج الجواب من ذاته، وذلك أن طاقة السؤال الإقناعية تنبني في أغلب الأحيان على الضمني لا على المصرح به[١]، وإذا كانت طبيعة السؤال أن يوجه للآخر فإن أسئلة ابن عطاء الله تستبطن الذات أولًا قبل أن تستشرف للآخر، ومن ثم فهي تربط بين محاور ثلاثية هي:(المنتج والمتلقي والنص)، وقد وردت التساؤلات في(١٤) حكمة بنسبة(٥,٣% تقريبًا)، ومواضعها في الحكم: (٨، ١٣، ١٦، ٢٩، ٣٥، ٣٩، ٤٠، ١٢٦، ١٢٧، ١٦٧، ١٦٩، ٢٠٨، ٢١٤، ٢٥٣).

وأسئلة ابن عطاء الله لا تنتظر جواب المتلقي، لكنها ترمي إلى مفاجأته، وإلزامه بالحجة التي وصل إليها من خلال محاولة الوقوف على أجوبة مقنعة للأسئلة التي أثارها السكندري في نفسه، ولذا تنوعت أغراض الاستفهام في حكمه، فمنها: التقرير، والاستفهام التقريري وسيلة من وسائل إلزام المتلقي الإقرار بحجة الكاتب من خلال استخراج المعنى من ذاته وإقراره به، لاحظ ذلك في الحكمة(٨)؛ حيث يقول: (ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها إليه؟!)، فمفردات:(تعلم)(التعرف) توحي بيقينية المعلومة، وأنها من المسلمات، وتضفي الصبغة العلمية على الخطاب، وهو ما يفاجأ المتلقي المتأهب لقراءة نص وجداني صوفي يستفز مشاعره قبل عقله، ثم الخطاب الموجه للمتلقي المدعم بالاستفهام يشرك المتلقي في إنتاج الدلالة، ويجعله أمام مسؤولية الجواب عن الاستفهام، أو الإقرار بالدلالة، إضافة لضمير الخطاب الذي يشير إلى السعي لبناء حوار مشترك مع المخاطب، وكأن الكاتب ينتظر جواب المتلقي عن سؤالاته، إضافة لحرصه على سوق الدلالة مؤكدة من خلال إظهار الضمائر المتصلة(هو، أنت)، مع تدعيم ذلك بالجمل الاسمية لإفادة الثبوت.

وقد يحمل الاستفهام دلالة الاستبعاد، كما في الحكمة(٨)في قوله: (وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك؟!)، هنا أيضا نلاحظ تدعيم النص بضمير الخطاب مع الحرص على كثافة الضمائر، والعدول عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالاسم لتأكيد الدلالة للمتلقي، فعدل عن قوله: (مما يورده عليك) إلى قوله:(مما هو مورده عليك)، وفارق بين الثبوت الدلالي الذي نلحظه في الاسم(مورده)، وبين التجدد الدلالي الذي نلحظه في الفعل(يورده)، والذي يجعل الحالين متوازنين أعنى هدية العبد ووارد الرب، وفارق بين الحالين كبير، وهو ما يعيدنا لفكرة الاستبعاد التي هي مقصود الاستفهام، ثم تلك المفردات الصوفية(تهديه، يورده)التي ظللت النص بالصبغة الصوفية، مع ملاحظة الفارق بين حروف الجر(إلى وعلى)، فمع الرب سبحانه استخدم(على) التي تفيد الاستعلاء، وتدل على مزيد تعظيم لعلوية الرب سبحانه، ومع هدية العبد استخدم (إلى) التي تفيد الانتهاء نظرا لانحطاط مكانة العبد في حضور جلال الرب -عز وجل-.

وقد يكون غرض الاستفهام التعجب، يقول في الحكمة(١٣): (كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟!. أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته؟! أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته؟!.أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته؟!)، وواضح هنا أننا أمام سلسلة من الاستفهامات تهدف إلى استنكار الرحيل إلى الله ولا زالت الدنيا في قلب الراحل وعقله، وقد دعم ابن عطاء الله دلالة الاستنكار بالتكرار لتأكيد الدلالة، وإلزام المتلقي بالحجة، إضافة لتوظيف المفردات والتراكيب الصوفية التي تخاطب الوجدان نحو قوله: (يشرق، الأسرار، مكبل بشهواته، صور الأكوان، جنابة غفلاته)، كما استخدم خطاب الغائب الذي يحمل مزية خاصة في هذه الحكمة؛ حيث لم يرد أن يصارح المتلقي مباشرة من خلال ضمير الخطاب بعدم قدرته على الرحيل إلى الله، وهو مكبل بأغلال الدنيا وما فيها، حتى لا يصعب عليه طريق الوصول إلى الله، وآثر ضمير الغائب

[١] - الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه:صـ١٤٢

لضمان تفاعل المتلقي مع الحدث، وعدم الصدام معه، وتيئيسه من الوصول إلى مولاه، كما أن التكرار الصوتي المتمثل في السجع أسهم في استمرارية النص، وتشويق المتلقي لمتابعة ذلك الكلام المنتظم الإيقاع، وقد استعان السكندري ببعض الصور التي تثير تساؤلات في نفس المتلقي فوق تساؤلات الكاتب، وترسم صورا ذهنية جديدة داخل عقله، فإنه من المألوف إسناد الإشراق للشمس، لكن كيف يشرق القلب؟ إن إسناد الإشراق للقلب يضفي عليه صورة الشمس التي تنير جوارح العبد بنور الإيمان.

ثم هل للقلب مرآة؟ لعله أراد أن يشير إلى أن صفاء قلب العابد يجعله كالمرأة التي تعكس الأشياء، لذا على الإنسان أن ينظر لما ستعكسه مرآة قلبه.

وهل يرحل القلب؟ وهل الشهوات قيد يكبل القلب؟ وكيف ذلك؟ وهل الغفلة جنابة؟ وكيف يتطهر منها؟... هذا السيل من التساؤلات يضاف لتساؤلات الكاتب، فتحرك ذهن المتلقي نحو التفكير والوصول لإجابات مناسبة مريحة لقلبه وعقله.

وقد صاحب الاستفهام التعجبي الاستنكاري في الحكمة(١٦)تكرار لفظي؛ لاستنفار تعجب المتلقي ورفضه؛ حيث تراكم أحد عشر استفهامًا في الحكمة الواحدة، كرر في استهلال تسعة منها قوله: (كيف يتصور أن يحجبه شيء)، وكأنها نغمة استفتاح لجمله يظن المتلقي فيها أنه سيقرأ الدلالة ذاتها لكنه يفاجأ ببناء جديد،مما يحدث له الدهشة والصدمة، خاصة أنه تلاه بتكرار بعض المفردات فقال: (كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي أظهر كل شيء، كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر بكل شيء؟! . كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر في كل شيء؟!. كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الذي ظهر لكل شيء؟! . كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟!. كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أظهر من كل شيء؟!. كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟!. كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أقرب إليك من كل شيء؟!. كيف يتصور أن يحجبه شيء، ولولاه ما كان وجود شيء؟!، يا عجبًا.. كيف يظهر الوجود من العدم؟!.أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم؟!.)، وعلى الرغم من تراكم الأسلوب التكراري والاستفهام إلا أننا لا نستشعر الرتابة؛ لأن ذلك التكرار خالف توقعات المتلقي في كل مرة، حيث توقع أن يجد تكرارًا فإذا به يقف أمام دلالة عميقة مختلفة تماما عن سابقتها، وبناء دلالي جديد يلزمه بالقبول والتسليم، كما أن أسلوب السؤال استنفر طاقة المتلقي لإعمال الذهن، والوقوف على دقائق الفروق بين متشاكلات الألفاظ والأساليب، وهذا النمط من الاستفهام يؤدي إلى خلخلة قناعات المتلقي وزرع قناعات جديدة داخله[١] فلا عجب أن يتغير سلوكه ويتأثر بتلك الحكم.

ومن الأفعال اللغوية الأمر؛ ونظرا لأن الآمر والناهي هنا لا يملك سلطة إلزام المحاور، فإنه محمول في أغلب مواضعه على النصح والإرشاد، خاصة أنه ورد في سياق الحكم، وورود الإرشاد في ثوب الأمر أو النهي يحمل عبق الإلزام بالفعل أو الترك، ويوحي بأهمية الأمر أو النهي، ومن هنا تتشكل رؤية المتلقي واستجابته له، لاحظ ذلك في الحكمة(٤٧)؛ حيث يقول: (لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره...)؛ فقد دعم دلالة النهي التي توحي بالإلزام بمحاولة إقناع المتلقي من خلال التعليل، وتكرار المفردات المركزية للتأكيد عليها نحو(ذكر وغفلة)، واستخدام المفاضلة بين حال العبد الغافل عن الذكر، وبين حال العبد الغافل في وجود الذكر.

ومن ذلك قوله في الحكمة(٤٣): (لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله)، وكذلك الأمر في الحكمة(٣٤)(اخرج من أوصاف بشريتك عن كل وصف مناقض لعبوديتك، لتكون لنداء الحق مجيبا، ومن حضرته قريبا).

وقد يكون غرضه التأدب نحو قوله في الحكمة(٣٩):(لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك)،

[١] -الخطاب الحجاجي في كتابات عبد الله دراز : انظر صـ٣٩٨

وقوله في الحكمة (١٩) :(لا تطلب منه أن يخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها, فلو أراد لاستعملك من غير إخراج)، وواضح استعانته بضمير الخطاب، وحرصه على تفسير سبب النهي في المثالين، إضافة لحرصه على تأكيد الدلالة للمتلقي، سواء من خلال نون التوكيد في المثال الأول، أو تكرار الفعل(استعمل)، ومادة (خرج) في المثال الثاني.

(ج) تنوع طرائق بناء الدلالة لتناسب جميع فئات المتلقين، وهي كثيرة منها:

-التناص؛ حيث يمثل التناص حوارًا مع ثقافة المتلقي في محاولة لإقناعه بما هو جديد عليه من خلال ما هو ثابت لديه، وقلما خلت حكمة من تناص مع القرآن أو الحديث بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وقد أشار النقاد إلى أهمية النصوص الدينية، وما تملكه من طاقة إقناعية انطلاقًا من قداستها لدى المتلقي[١]، ومواضع التناص المباشر(٢٢)موضعًا، بنسبة(٨,٣% تقريبًا) من مجموع الحكم، والمواضع الواردة فيها هي الحكم:(٢٠، ٣٠، ٣١، ٣٣، ٣٧، ٤١، ٤٢، ٤٧، ٥٨، ٦٥، ٦٨، ٧٤، ١٠٤، ١٤٠، ١٥٠، ١٧٠، ١٧٧، ١٩٥، ١٩٧، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧)، وغالبيتها وردت في ختام كلامه، فجاءت بمثابة استدلال بالمعلوم على المجهول، وتوثيق لعرى فكرته، ونص حكمته، وذلك بخلاف موضعين في الحكمتين(٣٠ ،١٤٠)؛ حيث توسط التناص الحكمتين؛ وقد فسر فيهما القرآن تفسيرًا صوفيًا لتوضيح فكرته، واختيار الخاتمة لتكون محلًا للتناص المباشر غاية في الأهمية؛ لأنه بذلك يقرع سمع المتلقي في خاتمة النص بما لا يستطيع دفعه من ثوابت الكلم عنده، كما أن الخاتمة أكثر علوقًا بالذهن؛ لأنها آخر ما يقرع قلب المتلقي وذهنه من كلام المبدع[٢]، ومن ثم يكون تركيز المتلقي فيها أشد، خاصة مع التكثيف والتركيز والإيجاز الذي تتسم به الحكم، فيكون ذلك أدعي لقبول الكلام، وعلوقه بالذهن.

يقول في الحكمة(٤٢): (لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى: يسير.. والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل عنه! ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون(وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى)، وانظر إلى قوله صلي الله عليه وسلم: (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه) فافهم قوله صلي الله عليه وسلم: فهجرته إلى ما هاجر إليه، وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم)

يخاطب ابن عطاء الله المتلقي بفكرة الرحيل إلى الله، وجعلها المقصود الأسمى، وعدم التوجه للمخلوق؛ لئلا يكون المرء كحمار الرحى يدور في فلك واحد، وما بدأ به هو ما انتهى إليه، مستدلًا على صدق رؤيته من ثقافة المتلقي المسلم، وثوابته من الكتاب والسنة، وعلى الرغم من كثرة النصوص الصوفية[٣] وغير الصوفية في هذا الصدد فإن ابن عطاء الله لم يستدل سوى بالثوابت من النصوص لدى عامة المسلمين وخاصتهم- أعني بذلك الكتاب والسنة-، وهو ما يشير إلى أن ابن عطاء الله يسعى لخطاب

---

[١] -بحث الحجج الجاهزة وطاقاتها الإقناعية نقائض جرير والفرزذق أنموذجًا: انظر صـ١٩٥

[٢] -انظر: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، وبيان إعجاز القرآن: ابن أبي الإصبع، تحقيق: د.حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م: انظر صـ٦١٦، وكذلك الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة: محمد بن علي بن محمد الجرجاني، تحقيق:د. عبد القادر حسين، دار غريب، القاهرة، ١٤٣٢ه-٢٠١١م،انظرصـ٣٩٥، وروضة الفصاحة: أبو منصور الثعالبي، تحقيق محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٩٤م، انظر صـ١٥١ .

[٣] - ومن نصوص الصوفية التي تحمل المعاني نفسها قول أبي الحسن الشاذلي: "قف بباب واحد لا لتفتح لك الأبواب تفتح لك الأبواب، واخضع لملك واحد لا لتخضع لك الرقاب تخضع لك الرقاب، قال الله تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُه) " ، ومنها قول الداراني:

كمالُ اللهِ أكبرُ من كمالــِي فللَّهِ الكمـــــــــــالُ ولا مُمـــــــــــارِ

وحبُ اللهِ أفضلُ كل شيءٍ فلا تنسى التخـــــــــلقَ بالوقــارِ

وذكرُ اللهِ مرهمُ كـل جــرحٍ وأروى مـــــــن زلـــــــــالٍ للأوارِ

ولا موجـــود إلا الله حقًـــــا فدعْ عنكَ التعلقَ بالغيــــــــــــــارِ

نصوص الشاذلي والداراني مذكورة في حكم ابن عطاء الله شرح العارف بالله الشيخ زورق:صـ٨١ وما يليها

جمهور المسلمين من الصوفية وغيرهم، فيضع أرضية مشتركة يقبلها الجميع -أعني الكتاب والسنة-، لقد استغل ابن عطاء الصورة الذهنية المختزنة لدى المجتمع عن الحمار التي تشير إلى صفة الغباء، وعن حمار الرحي تحديدا الذي يتحرك في حركة دائرية معصوب العينين ظانا أنه ينتقل من مكان لآخر، والحقيقية أنه يدور في المكان ذاته، وقد ربط بين حال الراحل من كون إلى كون، وحال ذلك الحمار في غبائه، وعدم إدراكه لكونه يسير في الدائرة ذاتها على مدار يومه، ودأبه في السعي إلى اللاشيء ليدلل على عدم جدوى ذلك السعي الذي يفتقد لإخلاص الساعي،

هذا فضلا عن تكرار مادة(رحل وكون) التي تشد المتلقي لمحورية المفردتين، وتذكره بهما، وتؤكد دلالتهما، ثم كانت الخاتمة ترسيخا لدلالة التمثيل بنصين من القرآن والسنة يبينان أهمية الإخلاص في قبول الأعمال، فإذا كان المنتهى لله فلما نشرك معه غيره في التوجه إليه، وإذا كانت الأعمال بالنيات فلماذا نضع نصب أعيننا غيره، حتى إن أحب الأعمال إلى الله-وهي الهجرة- تفتقر لنية صاحبها ليؤجر عليها.

ويقول السكندري في الحكمة(٦٥): (خف من وجود إحسانه إليك، ودوام إساءتك معه؛ أن يكون ذلك استدراجًا لك(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ))؛ حيث استدل بالآية وهي في سورة الأعراف(١٨٢)على أن دوام إحسان الله للعبد مع دوام إساءته في حق مولاه قد يكون استدراجًا من الله له، وقداسة النص الديني لها أثرها في إقناع المتلقي بالفكرة المرادة، والوقوف على أرضية مشتركة لا يمكن الخلاف عليها، وإن اختلف المتلقون في تفسيرها، بل إنه استخدم المادة المعجمية نفسها التي توحي بالتدرج دون شعور المرء بالنهاية التي يسير إليها (سنستدرجهم، استدراجا)، مع حضور ضمير المخاطب، وصيغة الأمر التي تضفي طابع النصح للمتلقي، فتخاطب وجدانه أيضا، وتجعل خطاب العقل أيسر في القبول، ثم المقابلة بين الإحسان والإساءة، بين فعل الرب وحال العبد، يجعل المتلقي ينفر من مقابلة إحسان مولاه بالإساءة، فيشكل ذلك الرغبة في سلوك طريق جديد في التعامل مع الله، خاصة حين تتحول نظرته لإحسان الخالق إليه أنها استدراج له، وليست رضا عنه، إن ظلال الاستدراج المدعمة بفعل الأمر(خف)، وصيغة الخطاب، وقوله تعالى: (لا يعلمون)، يلقي في النفس الرهبة من عدم الشعور بالمصير والغفلة عنه، وهو ما يلزم النفس بالحذر، وتفقد النية، وهذا هو مراد السكندري من حكمته.

-القياس من خلال التمثيل لإقناع المتلقي بالمعنى من خلال ضرب المثال لتقريب المقال، وفي كلام عبد القاهر عن التمثيل ما يبرز أثره على المتلقي؛ حيث يقول: (واعلم أنّ مما اتفق العقلاءُ عليه، أن التمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني، أو بَرَزَتْ هي باختصار في مَعرِضه، ونُقِلت عن صُوَرها الأصلية إلى صورته، كساها أُبَّهةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارِها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلَفا، وقَسَر الطِّباع على أن تُعطيها محبّة وشَغَفا)[١]، ويتابع حديثه عن أهمية التمثيل في إقناع المتلقي، وأن أنسه به يرجع إلى كونه يخرج النفس من الخفي إلى الجلي، وأنك ترده من الشيء الذي تعلمها إياه إلى الشيء تعلمه[٢]، وقد سبق معنا تمثيل ابن عطاء الله في الحكمة(٤٢)، وننتقل إلى نماذج أخرى.

يقول في الحكمة(٢٢٠):(لا تركبن واردا لا تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة الإمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار(الإثمار))، فابن عطاء الله يريد من السائر لله أن يحدد هدفه وثمرة عمله قبل الإقدام عليه حتى لا يضيع جهده، وينشغل عن ما هو أولى وأنفع له، خاصة أن الأعمال تتزاحم على العبد،والعمر قصير محدود، والمقصود هو ثمرة العمل على العامل لا العمل ذاته، لذا ضرب مثالًا بالسحابة؛ لتقريب الصورة للأذهان، فالناس لا ترغب منها بالمطر وحسب، لكن الرغبة في نتيجة ذلك المطر أعني الثمر، ولاحظ هنا توارد المفردات بين المثل والممثل عليه من خلال مادة(ثمر) التي تسهل

[١] - كتاب أسرار البلاغة: صـ١١٥

[٢] -السابق: انظر صـ١٢١

على ذهن المتلقي الانتقال بين الصورتين، والاقتناع بالمعنى من خلال قناعته بالمثل، وابن عطاء الله لم يكتف في تلك الحكمة بالتمثيل، وإنما دعمه بالخطاب والتأكيد في(لا تركبن)؛ لإضفاء المصداقية على خبره الذي استعان بالتمثيل له لترسيخ دلالته في ذهن المتلقي، كما أن صيغة العلم توحي بالمعرفة اليقينية التي على المتصوف أن يتحلى بها في أمثال تلك الواردات.

ويقول في الحكمة(٢٤٩): (لا يلزم من ثبوت الخصوصية عدم وصف البشرية، إنما مثل الخصوصية كإشراق شمس النهار، ظهرت في الأفق وليست منه، تارة تشرق شموس أوصافه على ليل وجودك، وتارة يقبض ذلك عنك، فيردك إلى حدودك، فالنهار ليس منك وإليك، ولكنه وارد عليك)، إن فكرة تميز طائفة من العباد بخصوصيات ومنح وعطايا من الوهاب لا يعني انعدام بشريتهم، لكنها كالشمس تشرق في الأفق وليست منه، فالله قد يعطي المنح للعبد، وقد يقبضها عنه بحسب علمه بحاله، وبما يصلحه. فتلك النعم واردة منه إليك، (فإذا أشرقت تجليات الصفات والأسماء على القلب انمحى ليله، ولكن ذلك لا يدوم، فالأمر مرجعه لله، فكما أن النهار ليس من الإنسان إلى الإنسان بل هو من الله للإنسان، فكذلك تجليات الصفات ليست من الإنسان إلى الإنسان بل هو من الله للإنسان، هي واردات يكرم الله-عز وجل- بها قلوب من يشاء من عباده)[١]، إضافة لتكرار(الخصوصية، ومادة(شرق) وشمس)، والخصوصية هي المفردة المركزية التي تدور حولها الحكمة، ومن ثم كان التأكيد عليها بالتكرار له أهميته في ترسيخ الدلالة، والتذكير الدائم بها، إضافة لبناء الدلالة من خلال أسلوب الحصر بـ(إنما) وهو ما يوحي بيقينية المثل.

والملاحظ أن السكندري لم يستخدم ضمير المخاطب في بداية حكمته، لكنه آخره حتى استوفى التمثيل، وكأنه يتوسل بالمثل لإقناع المتلقي بالفكرة أولا، ثم ينتقل منها للتطبيق على المتلقي ليزداد أنسه بالمعنى وقبوله له.

-التقابل، وبناء الدلالة من خلاله يحفز المتلقي لمتابعة القراءة، والشعور بالنشوة في التفريق بين المتقابلات؛(حيث يتبين الضد بالمثول أمام ضده)[٢]، مما يسهم في وضع القارىء بين النشوة والتوتر، ويؤدي إلى التفاعل الذهني والعاطفي مع النص، ويؤثر على السلوك[٣]، ومن نصوص الحكم التي تجلت فيها تلك الدلالة قول ابن عطاء الله في الحكمة(٦٢): (أنت حر مما أنت منه آيس، وعبد لما أنت به طامع)، فقد تقابلت مفردات الجملتين(حر وعبد)(آيس وطامع) وهو ما أبراز المعني في ضوء نقيضه، وسهل على العقل تصوره والاقتناع به، فهذا الإنسان يعيش حرا طليقا حين ييأس من تحقيق رغبة أو شهوة، ويصبح عبدا ذليلا لرغبته حين يطمع ويشتهي، إن تلك المقابلة المدعمة ببنية الخطاب، وظلال المقابلة بين المرغوب من الحرية، والمرهوب من العبودية تحمل المتلقي على اختيار الحرية مع اليأس على العبودية مع الطمع، مع ملاحظة استخدام لفظ(طامع)، والطمع يوحي بأخذ الإنسان ما ليس من حقه، وفيه تنفير من المطموع فيه، إضافة لتكرار ضمير المخاطب(أنت) الذي يضفي الخصوصية على الخطاب، ويستثير المتلقي لمتابعته.

ويقول في الحكمة(٢٢٨): (إن رغبتك البدايات زهدتك النهايات، إن دعاك إليها ظاهر نهاك عنها باطن)، لاحظ التقابل وشبهه بين جميع المفردات تقريبًا:

رغبتك /زهدتك ، البدايات / النهايات ، دعاك/نهاك ، إليها/عنها ، ظاهر/ باطن

فالمقارنة من خلال بنية المقابلة بين البدايات التي ترغب في الإقبال على متع الدنيا، والنهايات التي تزهد فيها لزوالها، وبين دعوة الظاهر ونهي الباطن تنفر المتلقي قطعا من القدوم على الدنيا والرغبة

---

[١] -مذكرات في منازل الصديقين والربانيين من خلال النصوص وحكم ابن عطاء الله السكندري: سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، الإسكندرية، مصر، ط١٠، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م، صـ٥٠٢.

[٢] -منهاج البلغاء وسراج الأدباء: صـ٤٤

[٣] -التلقي والإبداع، قراءات في النقد العربي القديم، محمود درابسة، دار جرير، عمان،ط١ ،١٤١٣ه-٢٠١٠م، انظرصـ٧٤.

فيها، وهنا أيضا يضفي السكندري على خطابه طابع الخصوصية من خلال ضمير المخاطب، ويقابله بطابع الشمول من خلال صيغ الجمع(البدايات، النهايات)، والعموم المستفاد من التنكير في:(ظاهر، وباطن)، إضافة لبنية الشرط التي تجعل المتلقي يترقب الجواب متوقعا الاحتمالات الممكنة، فإذا تجلى له الجواب سكنت النفس بمعرفته، واقتنع العقل، واستجابت الجوارح.

-حسن التقسيم، وهو ما يشير إلى انتظام النظم واستقصاء المعاني، رغبة في إقناع المتلقي بها، يقول في الحكمة(٥٧): (النور له الكشف، والبصيرة لها الحكم، والقلب له الإقبال والإدبار)؛ حيث قسم وظائف النور والقلب والبصيرة، فجعل للنور كشف الأمور على حقيقتها، وللبصيرة الحكم عليها، أما القلب السليم فيقبل في مواضع الإقبال، ويدبر في مواضع الإدبار، وإذا كان النور غير تام فإنه لا يكشف حقائق الأمور، وكذا البصيرة غير المستقيمة لا تصيب في حكمها، وهو ما يترتب عليه إقبال القلب في غير مواضع الإقبال، وإدباره في غير مواضع الإدبار، والملاحظ هنا أنه لم يوظف ضمير المخاطب إشارة لعمومية الخطاب، وهو ما يجذب إليه شرائح متنوعة من المتلقين.

ويقول في الحكمة(٢٥٤) في حديثه عن علاقة الأنوار بالأذكار(قوم تسبق أنوارهم أذكارهم ، وقوم تسبق أذكارهم أنوارهم، وقوم تتساوى أذكارهم وأنوارهم، وقوم لا أذكار ولا أنوار، نعوذ بالله من ذلك)، ويفسر سعيد حوى ذلك بأن من يراقبون الله قبل الذكر تسبق أنوارهم أذكارهم، ومن يبدأون بالذكر ثم يستشعرون الصفات هم من تسبق أذكارهم أنوارهم[١]، وواضح أن السكندري استوفى القسمة العقلية الرباعية للعلاقة بين الأذكار والأنوار، كما اعتمد على تكرار (قوم، تسبق، أذكار، أنوار)؛ لأن هذه الكلمات الأربع هي لب الدلالة، ثم إنه لم يشرك ضمير المخاطب، وإنما تجلت الحكمة في أسلوب خبري؛ لأنها قسمة عقلية قلما يقع الخلاف حولها، ومما يدعم بناء الدلالة اعتماده على الجمل الاسمية التي تفيد الثبوت.

-التعليل، حيث يسهم بصورة واضحة في إقناع المتلقي بالفكرة؛ لأنها لا تساق له غفلا عن عللها، ولكنها تذكر مسببة، فيقتنع بها العقل، وتعمل بها الجوارح، ونجد ذلك على سبيل المثال في الحكمة(٥٣) يقول: (أورد عليك الوارد ليتسلمك من يد الأغيار، ويحررك من رق الآثار)، والمقصود وارد الإقبال على الله، فقد أورده الله على العبد ليؤنسه بذكره، وينقذه من المخلوقات، ومن رق العبودية لها إلى عز العبودية لله وحده، فالمتلقي حين يتأمل في لطف الله به في اصطفائه في الإقبال عليه يجد أن أسباب ذلك واضحة، فيكون عمله على هدى، وهنا أيضا يشعرنا ضمير المخاطب بخصوصية الخطاب، كما يسهم الجانب الصوتي الممثل في السجع -على نحو خاص -في جذب المتلقي، وقد دعم دلالة التعليل بمفردات موحية تظلل النص بظلال الأسر والعبودية؛ للتنفير من التعلق بغير الله، نحو قوله:(يتسلمك، يد، يحررك، رق)، إضافة إلى أن مقابلة صيغ الجمع في(الأغيار والآثار)بالمفرد المخاطب يوحي بضعف المتلقي إزاء تلك القوى، إلا أن يقويه الله بقوته فيتسلمه ويحرره.

ويقول في الحكمة(٢٣): (لا تترقب فراغ الأغيار، فإن ذلك يقطعك عن وجود المراقبة به فيما هو مقيمك فيه)، أي لا تترقب فراغك من أمور الدنيا حتى تقبل على الله؛ لأن ذلك يصرفك عن المراقبة، فاحرص على مراقبة الله مع الانشغال بعملك دائما، وهنا أيضا دعم النص ببنية الخطاب لإضفاء الحوارية والخصوصية على الخطاب، كما وظف المفردات الصوفية(الأغيار، المراقبة)؛ لضمان متابعة المتلقي للنص، ثم المفارقة بين مفردات(تترقب والفراغ)، فالترقب انتظار لكنه انتظار الفراغ، ثم هو لا يترقب فراغه، وإنما فراغ الأغيار وزوالها عنه، فهو ليس فاعلها لكنه مفعول فيها، منشغل بها عن مراقبة مولاه، مما يشعر بضعفه أمام تلك الأغيار على الرغم من انشغاله بها، وهو ما يجعل المتلقي يحرص على إثبات ذاته بالتخلص من أثرها عليه، والانشغال بمراقبة الله.

---

[١] - مذكرات في منازل الصديقين والربانيين من خلال النصوص وحكم ابن عطاء الله السكندري: انظر صـ٥٠٩

ويقول في الحكمة(٢٤):(لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت في هذه الدار، فإنها ما أبرزت إلا ما هو مستحق وصفها، وواجب نعتها)، فالدنيا دار الأكدار؛ لذا لا يجب على المرء استغراب ما يقع فيها من كدر، وهذا السبب يقنع المتلقي بالفكرة بعد أن جذبه التقارب الصوتي بين(أكدار،دار)، وكأن هذه الدار هي الأكدار، ثم التقارب الدلالي الواضح بين (وصفها ونعتها) وبين(مستحق وواجب) الذي يؤكد المعنى في نفس المتلقي، ولعل سبب اقتناع المتلقي أيضا هو قرب هذا السبب من حياة المتلقي ذاته من كثرة المحن والابتلاءات التي يعيشها في الدنيا، ثم أسلوب التوكيد بـ(إن)، والقصر بأقوى أدوات القصر النفي والاستثناء، وكلاهما يؤكد الدلالة التي سيقت معللة بسببها؛ ليقوى معناها في نفس المتلقي، ويحسن قبوله لها.

-الاستدراك، حيث يوحي باستقصاء جوانب الدلالة فلا يترك منها شاردة ولا واردة إلا وقف عليها، فاستدرك على نفسه قبل أن يستدرك عليه، وهذا الاستدرك يبني المعنى في ذهن المتلقي شيئا فشيئا، ويوحي بدقة المعلومة، حيث تشير(لكن) إلى التعارض بين ما قبلها وما بعدها[١]، ومن ثم توجه الخطاب إلى دلالة مغايرة.

يقول في الحكمة(١٣٠): (لو أنك لا تصل إليه إلا بعد فناء مساويك، ومحو دعاويك؛ لم تصل إليه أبدًا. ولكن.. إذا أراد أن يوصلك إليه؛ ستر وصفك بوصفه، وغطى نعتك بنعته.. فوصلك إليه بما منه إليك، لا بما منك إليه)، فالإنسان الذي يظن أنه لن يصل لله إلا بعد اكتماله مخطىء، لأن ذلك محض فضل من الله لعبده، إن علم منه صدق الإقبال عليه. إن وقوف المتلقي قبل أداة الاستدراك(لكن) يثير في نفسه سؤالا حول كيفية الوصول، فيأتي ما بعدها مكملا للدلالة، ومساعدا للمتلقي في استكمال سيره لربه، وقد دعم بنية الاستدراك بخصوصية الخطاب المتمثل في ضمير المخاطب، وبتوظيف المترادفات وشبهها نحو(غطى وستر) (فناء، محو)تلافيا لملل المتلقي، وضمانا لاستمرارية القراءة، وتأكيدًا للدلالة،مع التكرار الواضح في النص ومنه تكرار: (مادة وصل، وصف، نعت، ما)لتأكيد الدلالة، إضافة لتتابع أسلوب الشرط بـ(لو وإذا)، وهو ما يجعل المتلقي يترقب جواب الشرط دوما ليكتمل لديه المعنى، وقد ارتكز السجع على كاف الخطاب وهاء الضمير، والأولى منهما توحي بخصوصية الخطاب، في حين أن الهاء حرف يخرج من أقصى الحلق ليوحي بالمشاعر، فتوظيف الحرفين في السجع مع ما فيه من الحرص على موسيقى النص يشكل خطابا وجدانيا بامتياز، وبذلك تتضافر وسائل الخطاب بين حجاج العقل، وخطاب القلب.

-التفصيل بعد الإجمال؛ فإن المعنى إذا ألقي مجملا استشرفت النفس للوقوف على تفصيلاته، فيكون التفصيل بعده واقعا موقعه، من حيث قبول النفس له، وسكونها بمعرفته، فيرسخ فيها، ويقتنع به العقل؛ لأنه وصل إليه بعد استشراف نفس، يقول في الحكمة(١٧٨): (تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه، تحقق بذلك يمدك بعزه، تحقق بعجزك يمدك بقدرته، تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته)، فقد أجمل السكندري أوصاف الملك سبحانه وأوصاف العبد، وطلب من العبد أن يتحقق بأوصافه ليمده الرب بأوصافه، وهنا تستشرف النفس لمعرفة أوصاف الرب وأوصاف العبد، فيكون تفصيل ما أجمل من خلال المقابلة بين صفات الرب من العز والقدرة والحول والقوة، وصفات العبد من الذل والعجز والضعف،...إلخ،فمن تيقن أنه ذليل لرب عزيز أمده الله بالعزة ، ومن تحقق أنه ضعيف أمام رب قادر أمده الله بالقدرة على أداء ما كلف به،... وهنا نجد أن هذا التفصيل رسخ الفكرة في عقل المتلقي، إضافة لبنية المقابلة بين أوصاف الرب وأوصاف العبد التي تجعل المعنى يتجلى في ضوء نقيضه، فيزداد رسوخه، وقد دعم ذلك ببنية الخطاب التي تضفي الحوارية والخصوصية على الخطاب، كما نلاحظ التكرار اللفظي في(تحقق ويمدك) الذي يركز على فعل العبد في مقابل فعل الرب،

[١] -الجنى الداني في حروف المعاني: أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي، تحقيق: د.فخر الدين قباوة، والأستاذ: محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م، انظرصـ٦١٦ .

والتكرار الصوتي الممثل في صوت الهاء، وهو صوت يخرج من أقصى الحلق مشبعا بالهواء، في مقابل صوت الكاف الذي يحبس فيه النفس والهواء لشدة اعتمادة على مخرجه، فنحن أمام مقابلة صوتية بين انحسار أوصاف العبد الذي يتجلى في اتصال أوصافة بكاف الخطاب(أوصافك، ذلك، عجزك، ضعفك)، وبين سعة أوصاف الرب التي تتجلى من خلال اتصالها بصوت الهاء الذي يشبه أصوات المد في سعة المخرج (أوصافه، عزه، قدرته، حوله، قوته).

ويقول في الحكمة(٢٦٤):(الفكرة فكرتان: فكرة تصديق وإيمان، وفكرة شهود وعيان، فالأولى لأرباب الاعتبار، والثانية لأرباب الشهود والاستبصار)، فهو يقصد أن أرباب الاستدلال يستدلون على وجود المكونات بوجود صانعها، وهم أرباب الاعتبار، أما أهل الشهود والاستبصار فإنهم لا يحتاجون لذلك؛ لأن الغيب انقلب في حقهم شهادة، والدلائل مدلولات، إذا قوله: (الفكرة فكرتان) إجمال تستشرف به النفس لمعرفة طبيعة الفكرتين، فإذا وقفت على طبيعتها سكنت واطمأنت، وقد دعم البيان بتكرار(فكرة وشهود) لمركزية دلالتهما، كما وظف السجع بحرفي النون والراء، وكلاهما يتسم بالوضح السمعي العالي؛ لتمتع الأولى منهما بسمة الغنة، والثانية بالتكرار، وبذلك يناسب الرغبة في تفصيل طبيعة الفكرتين .

ويقول في الحكمة(٢٥٨):(أكرمك بكرامات ثلاث: جعلك ذاكرا له، ولولا فضله لم تكن أهلا لجريان ذكره عليك، وجعلك مذكورا به، إذ حقق نسبته لديك، وجعلك مذكورا عنده، فتمم نعمته عليك)، حيث أجمل الكرامات الثلاث، فلما تشوقت النفس لمزيد بيان عاد ففصلها، وهي أن الله أكرم عبده فجرى ذكر الجليل على لسانه، ثم لما ذكره أصبح وليا بذكره، إذا ذكر الناس ذاك العبد قرنوه بذكره لربه، فلما تحقق ذلك منه ذكره ربه في الملأ الأعلى عنده، وداخل ذلك البناء الدلالي تتنوع طرائق الحجاج الأخرى، ومنها: صيغة الخطاب التي تضفي الحوارية على الحكمة، وتسهم في جذب المتلقي، والاستهلال بصيغة تلفت الانتباه(أكرمك)، فهي تشوق المتلقي لمعرفة ماهية هذا الإكرام، ثم الاعتماد على التكرار لمادة(ذكر وجعل)، ومادة(ذكر)هي لب الحكمة، فهي أبرز كرامات الله للعبد ونعمه عليه، وقد تم تكرارها مع تنوع أشباه الجمل المتصلة بها لبناء دلالات جديدة(له، به، عنده)، وبذلك زاوج ابن عطاء بين التكرار والتنويع، وكرر(جعل)التي استهلت بها بدايات الجمل؛ لتوحي بأنه لا فضل للعبد في الذكر، وإنما هو منفعل بقدرة الله فيه، وهذا من كريم فضله عليه، ثم أسلوب الشرط الذي يجعل المتلقي يترقب الجواب؛ ليستقر لديه المعنى، وأخيرا الاعتماد على الاختزال اللغوي من خلال الضمائر، لتيسير سرعة الحفظ وضمان سيرورة النص.

(د)التدرج في إيصال المعاني للمتلقي، أو ما أطلق عليه السلالم الحجاجية[١]، وقد استعان ابن عطاء الله بها كي لا تكون الحكم بمثابة وصايا ثقيلة على النفس تمجها وتنفر منها،أو تكون المعاني مجرد إلقاء مباشر لخبرات ذاتية للمصنف،وهي عن القارىء بمعزل، فيصبح كلامه غريبًا على ثقافة المتلقي، بعيدا عن قناعاته العقلية، في حين أن أسلوب التدرج في إيصال المعاني الذوقية يأخذ بيد المتلقي وعقله إلى الفكرة شيئًا فشيئًا، فتتقبلها النفوس، كما يمتنع معه سوء الفهم المؤدي لنفور النفس من بعض المعاني التي تصادم ثقافة المتلقي غير الصوفي، وقد أشار القدماء لأهمية التدرج في تمرير المعنى للسامع،وطلب الحيلة في ذلك، واجتناب ما يكره المتلقي، وألا يهجم عليه بما يغضبه أو يرفضه، ثم يتدرج به من منزلة لأخرى حتى يحظى بإقناعه[٢] .

ومن ذلك قوله في الحكمة(٣٣):(الحق ليس بمحجوب عنك، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر؛ لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له

---

[١] -بحث الحجاج في الخطاب الصحفي جريدة الخبر أنموذجًا: د.فرحات بلولي، ضمن كتاب مباحث الحجاج بين التنظير والإجراء بحوث علمية محكمة في الحجاج، صـ٣١٦.

[٢] -البرهان في وجوه البيان: أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق: د.أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، جامعة بغداد، ط١، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م،انظر صـ٢٥٩ .

قاهر..(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِه)الأنعام(١٨))، ويفسر ابن عجيبة ذلك بقوله: (إذ لو حجبه شيء حسي لستره ذلك الحجاب، ولو كان له ساتر حسي؛ لكان لوجوده حاصر، إذ محال أن يستره من جميع الوجوه ولا يحصره، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر،وكيف والله تعالى يقول: (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِه)، أي لأنهم في قبضته، وتحت تصريف قدرته، وتخصيص إرادته ومشيئته، والفوقية: عبارة عن رفعة الجلال والمكانة لا المكان)[١]، والمقصود بالساتر هو عيوب الإنسان[٢].

فقد استطاع ابن عطاء الله من خلال الحجاج العقلي، والتدرج في نقل فكرته أن يوضح مراده، وأن الله ليس بمحجوب عن العبد؛ لأن ذلك يستلزم القول بوجود حجاب يحصر المحجوب، والحصر يستلزم القهر، والله -عز وجل-هو القاهر لعباده، ومن ثم وجب التسليم بأن الذنوب هي الحاجبة للعبد عن الله، وليس الله هو المحجوب عن العباد، وقد أسهم في تشكيل البنية الحجاجية للحكمة طريقته في الاستدلال من التناص والتعليل والاستدلال المنطقي، إضافة لأسلوب الخطاب والاعتماد على تكرار بعض المفردات، نحو: (قاهر،شيء ، مادة(حجب، حصر، ،ستر))، لترسيخ الدلالة في الذهن من خلال الإلحاح عليها بالتكرار، وكذلك تكرار الصيغ نحو صيغة اسم الفاعل:(حاصر، قاهر)التي تفيد الثبوت، إضافة لبنية الشرط التي تدرج بناء الدلالة للمتلقي من خلال ترقبه لجواب الشرط، ثم الربط بين النص القرآني وبنية الحكمة من خلال لفظ(قاهر)، والاستدلال بالقرآن للتدليل على صحة فكرته، واقناع المتلقي بها، خاصة أنه اختار لها خاتمة الحكمة؛ لأنها آخر ما يقرع سمع المتلقي، فتكون أثبت في ذهنه من غيرها من الكلام، ثم اختيار الهاء والراء في السجع، وقد سبق بيان أن ضعف صفات الهاء ورقتها يجعلها وسيلة فاعلة للتعبير عن المشاعر والأحاسيس، إضافة لخروجها من أقصي الحلق، وهو مخرج متسع، مما يجعلها مهموسة، يخرج صوتها مشبعا بالهواء، والراء حرف يتسم بالتكرار، فيوحي بتكراره بتكرار الحصر والقهر المترتب على انعقاد القلب على فكرة خاطئة، وهي أن الحق سبحانه محجوب عن عباده، إضافة لحرصه على التعميم الذي نلحظه في صيغة العموم(كل)، والتنكير في(شيء، ساتر، حاصر، قاهر) الذي يضفي العموم والشمول على فكرته.

ويقول في الحكمة(١١٢): (لا يستحقر الورد إلا جهول، الوارد يوجد في الدار الآخرة، والورد ينطوي بانطواء هذه الدار، وأولى ما يعتنى به ما لا يخلف وجوده، الورد هو طالبه منك، والوارد أنت تطلبه منه، وأين ما هو طالبه منك مما هو مطلبك منه)، إن فكرة الحكمة هي التنبيه على أهمية الورد، وقد بدأ بذم من يستحقره ووسمه بالجهل، وهو ما يجعل نفس المتلقي تستشرف لمعرفة السبب في الذم، وبذلك هيأ نفس المتلقي لتقبل المقارنة بين الورد الذي هو الأذكار ونحوها مما يقوم به العبد في حق مولاه، وبين الوارد، وهو ما يجعله الله في قلوب أصفيائه من المنح والمواهب، وقد حاول ابن عطاء إقناع المتلقي بارتفاع منزلة الورد على الوارد، لأن الورد ينتهي بانتهاء الدنيا، ويفوت بفواتها، ولأنه طلب الحق من العبد، والوارد طلب العبد من الحق وشتان ما بينهما، وقد دعم ابن عطاء تدرجه في إيصال المعنى بالمقارنة بين الورد والوارد، وبعنصر التكرار لـ(الورد، والوارد، والدار، ومادة(طلب)، ومادة(طوى)...)،وذلك لمركزية تلك المفردات، ولتذكير المتلقي بأهميتها دائما، إضافة لأسلوب القصر الذي حصر به الدلالة منذ استهلال النص، وبيَّن به مكانة الورد ذاما من يستحقره، ثم وضح أسباب ذلك من خلال المضارع الدال على تجدد الدلالة واستمراريتها(يستحقر، يوجد، ينطوي)، ثم بناء الجمل على الاسمية، لإفادة ثبوت طلب العبد للوارد، والرب للورد(الورد هو طالبه منك، والوارد أنت تطلبه منه)، وأخيرا الخاتمة باستفهام يفيد الاستبعاد، ونفي المساواة بين طلب الرب وطلب العبد.

---

[١] -إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة: صـ١١٢ وما يليها .

[٢] -مذكرات في منازل الصديقين والربانيين من خلال النصوص وحكم ابن عطاء الله السكندري: انظر صـ٢٦٦.

ثالثًا: توقعات القارىء بين المعيارية والعدول

إن حرص المصنف على إيصال المعنى للمتلقي يدفعه أحيانًا لكسر توقعاته من خلال العدول عن المألوف، وإذا كانت مطابقة الواقع للمتوقع تسهم في انسجام المتلقي مع النص فإن كسر توقعاته يحفز الذهن لتفسير إشكالاته، ولهذه الظاهرة صور عدة في الحكم منها:

(أ)الغرابة والغموض؛ إن توافر الغرابة والغموض في النص الأدبي يشدان المتلقي دومًا للنص، وهو ما يساعده على متابعة القراءة، ولأن النص الصوفي يتميز بمعجمه الخاصة، فقد ظللت تلك المفردات النص بالغرابة والغموض في كثير من الأحيان؛ والغموض في الخطاب الصوفي يرجع إلى خصوصية التجربة الصوفية، واعتمادها على الجانب النفسي والوجداني[١]، حيث يعد (من أبرز مسببات اللذة الفنية؛ حيث يحدث الدهشة وفعل المفاجأة عند المتلقي)[٢]، ويؤدي الغموض إلى بعض العناء في البحث عن المعنى، وهو ما يحدث اللذة الفنية عند المتلقي حال وقوفه على الدلالة بعد إعمال العقل، وهو وسيلة من وسائل الحجاج التي يستفز بها المبدع عقل المتلقي، وتعد كثافة اللغة، وتعدد التأويل، والغرابة في استخدام اللغة مما يبهر المتلقي، ويحدث له اللذة الفنية التي ينتج عنها تغير سلوكه، وقد قسم القرطاجني الغموض إلى غموض يرجع للمعانى، وآخر للألفاظ، وثالث للمعاني والألفاظ[٣].

ونتوقف عند بعض الحكم التي تتسم بالغموض والغرابة, ومنها غرابة الصورة، يقول في الحكمة(١٥٠): (ربما أفادك في ليل القبض ما لم تستفده في إشراق نهار البسط(لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا)النساء(١١))، ونلاحظ هنا توظيف المفردات الصوفية، وهو ما ظلل النص بالغرابة والغموض، فقد جعل للقبض ليلًا وللبسط نهارًا، إن اختيار النهار للبسط لما فيه من إشراق وانكشاف يتوافق مع طبيعة البسط الذي تستريح له النفس، وكذلك يتوافق القبض مع الليل في تلك الظلمة التي تقلل من وضوح الرؤية وانكشاف الأمور، فما هو المقصود بنهار البسط وبليل القبض؟

مراد السكندري أن الليل للمناجاة فربما استفاد العبد من انخناس النفس ولذة المناجاة ما لما يستفيده في نهار البسط والحركة والعمل، وقد دعم السكندري عنصر الغرابة بعدد من المؤثرات منها: المقابلة بين(ليل ونهار)، و(القبض والبسط)، وطباق السلب بين(أفادك) و(لم تستفد)، إضافة لبنية الخطاب التي توحي بذاتية التجربة على الرغم من غرابتها، وتشير أنها ربما تقع للشخص المخاطب ذاته، إضافة لاستشهاده بالقرآن؛ ليقيم الحجة على المتلقي بما هو مسلم به لديه، واختياره ليكون مسك الختام لحكمته ليكون أكثر التصاقا بذهن المتلقي.

ويقول في الحكمة(٥٥): (الأنوار مطايا القلوب والأسرار)، وهنا أيضا نلاحظ أن الغموض ناتج عن توظيف مفردات المعجم الصوفي في بناء عناصر الصورة، فالقارىء غير الصوفي لا يمكنه توقع دلالات المفردات، و(الأنوار هي الظلال الواقعة في الصدور من المعاني التي أتت بها الواردات، وهي مطايا القلوب بإيضاح الفهم إلى حضرة علام الغيوب، ومطايا الأسرار ببيان العلم إلى حضرة الملك الجبار، فمن طلع النور في قلبه سار على مطية فهمه، ومن طلع في أفق سره سار بمطية علمه، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور، وإذا كانت الأنوار مطايا الحق فلا تحمل عليها شيئا من الباطل، ومن الباطل رؤية النفس في نقصها وكمالها فافهم)[٤]، فتلك المعاني التي تقع في قلب العابد أشبه بالمطايا، وهي الدابة السريعة الخطا التي تتجلى عليها أسرار الولاية، إن هذا التشبيه يورد على ذهن المتلقي عددا من التساؤلات حول طبيعة تلك الأنوار وكيفيتها، وعلاقتها بالأسرار والقلوب، وكيف تكون الأنوار

---

[١] - راجع بحث في تطبيق نظرية التقبل على النص الصوفي-تدبرًا لمعانيه وكشفًا لمغاليقه-:أسماء خوالدية، مجلة مختبر اللغة الوظيفية،مختبر اللغة الوظيفية جامعة حسيبة بوعلي الشلف-الجزائر،عدد٢، مارس٢٠١٦م، انظرصـ٩٦.

[٢] -التلقي والإبداع، قراءات في النقد العربي القديم: صـ٩٩

[٣] -منهاج البلغاء وسراج الأدباء: انظر صـ١٧٢ وما يليها

[٤] - حكم ابن عطاء الله شرح العارف بالله الشيخ زورق :صـ٩٧

مطايا لها!...، وهو ما يضفي الحجاجية على الصورة، وحجاجية التشبيه عموما تكمن في استحضاره للأشياء، وتواردها على الذهن[١].

وقد تكون غرابة الصورة نتيجة لظاهرة تراسل الحواس، يقول في الحكمة(٢٣٠): (علم أنك لا تقبل النصح المجرد فذوقك من ذواقها ما يسهل عليك وجود فراقها)، ويقصد بذلك الولاية، فالتعبير عن المسموع من النصح بالمذوق من تراسل الحواس، وقد رأى النقاد أن الكاتب يتوسل به لاستثارة نظائر مشابهة له عند المتلقي عن طريق الرمز القائم على تراسل معطيات الحواس[٢]، والاستعارة في حد ذاتها وسيلة استثارة للمتلقي؛ حيث تعتمد على المفارقة من خلال اختيار معجمي تقترن بمقتضاه كلمتان في مركب لفظي اقترانًا دلاليًّا ينطوي على تعارض، أو عدم انسجام منطقي، ويتولد عنه بالضرورة مفارقة دلالية تثير لدى المتلقي شعورًا بالدهشة والطرافة، نتيجة لمفاجأة المتلقي بكسر توقعاته[٣]

ومن أسباب الغموض بعد الاستعارة والتشبيه، وقد أشار بعض الباحثين إلى أن الاستعارة تعد من أهم آليات الحجاج البلاغية نظرا لأن قوتها المجازية تحمل معنى الادعاء[٤]، ونجد صدى ذلك عند ابن عطاء الله؛ حيث يستخدم التصوير للإيحاء بالمعاني، وتنشيط الصور الذهنية المختزنة في مخيلة المتلقي؛ لإقامة جسور من التواصل بين النص وبين متلقيه.

يقول السكندري في الحكمة(٦٠): (ما بسقت أغصان ذل إلا على بذر طمع)؛ إن العقل يتخيل صورة تلك البذرة من الطمع تنبت فروعا طال انتظار الطامع لها، لكن المفاجأة بالنسبة له أنها لن تكون ثمار المأمول، وإنما ثمار الذل والمهانة، ومن ثم أسهمت الاستعارة في التنفير من تلك النبتة، وقد وظف ابن عطاء اللغة في تدعيم الدلالة؛ حيث دارت جميعها في فلك أسلوب القصر بـ(ما وإلا)، وهو أقوى أساليب القصر؛حيث يفيد تأكيد الدلالة، إضافة لدلالة الماضي الدالة على تحقق الحدث، ثم ظلال كلمة(الطمع) التي تنفر من المطموع فيه، إننا نجد أكثر من صورة في القرآن يصور فيها زوال الدنيا بذبول النبات وموته، لكن غرابة الصورة هنا في عدم موته، وإنما في تحوله إلى أغصان ذل لاستنباته من بذور الطمع.

ويقول في الحكمة(١١): (ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه)، إن القارىء لمفردة الدفن يتوقع بعدها وجود ميت، لكن توقعاته تتغير حين يعلم أن المقصود بالخمول هو سقوط المنزلة عند الناس، أو كتمان سر الولاية، وأنه استعار الإنبات لتوضيح الفكرة، وأن المدفون هو شيء معنوي أعني ذكر الإنسان لا جسده، والأرض ليست تلك التربة التي نعيش عليها، لكنها أرض خمول الذكر عند الناس، وعدم معرفتهم بسر ولايته، فهي التي ينتج فيها ذلك المدفون، وتتحقق للولي الولاية فيها، في حين أن النبت من الأعمال الصالحة والأسرار الذي ينبت خارج تلك الأرض لا يتم نتاجه.

ونلاحظ هنا غرابة الصورة وغموضها، فهو لم يستخدم مصطلح الغرس، ولكنه استخدم الدفن الذي يتعلق بالميت مبالغة في إثبات المواراة، وهنا تكون المفارقة بين الدفن والإنبات والنتاج، فالدفن للميت،

---

[١] -الخطاب الحجاجي في كتابات عبد الله دراز: انظر صـ٢٠٨

[٢] - الإبداع الشعري، وكسر المعيار رؤى نقدية: د. بسطام قطوس،لجنة التأليف والتعريب والنشر،مجلس النشر العلمي،جامعة الكويت،٢٠٠٥م،انظر صـ٤٨، ويفسر د.محمد فتوح تلك الظاهرة لدى الرمزيين من جانبين:**الأول:** يتعلق بانبعاث الألوان والأصوات والعطور من المجال الوجداني ذاته، ولذا يمكننا أن نوحي بأثر نفسي معين يدخل في نطاق حاسة ما عن طريق مفردة من نطاق حاسة أخرى لنقل الواقع النفسي على أتم الوجوه، **والثاني**: أن التعبير عن اضطراب الحالة النفسية للشاعر لا يمكن نقله للمتلقي إلا عن طريق الرمز المتجسد في تراسل الحواس، انظر الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر: د.محمد فتوح أحمد،دار المعارف، مصر، ١٩٧٧م، انظر صـ١٣٧ وما يليها .

[٣] - في النص الأدبي دراسات أسلوبية إحصائية: د. سعد عبد العزيز مصلوح،عالم الكتب، القاهرة، ط٣ ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م، انظر صـ ١٩٤.

[٤]- الخطاب الحجاجي في كتابات محمد عبد الله دراز ، انظر صـ٢١٤

والإنبات والنتاج من سمات الأحياء، وهو ما يحدث دهشة المتلقي ولذته، إضافة لصيغة الأمر(ادفن)، وتعليل الخطاب(لا يتم نتاجه)، وضمير المخاطب الذي يشرك المتلقي في بناء الدلالة، وطباق السلب بين:(ادفن)،و(لم يدفن)؛ حيث يوحي بأننا أمام ميت وليس حي، وكلها مؤثرات أسلوبية ترمي لإقناع المتلقي بالمبالغة في إخفاء سر ولايته، كما نلاحظ أيضا حرصه على التجسيد، فخمول الذكر أمر معنوي لكنه أثبت له أرضا؛ ليصور الفكرة في ذهن المتلقي، ويجعله أكثر اقتناعا بها.

ويقول في الحكمة(٢٦٢): (الفكرة سير القلب في ميادين الأغيار)، القارى لكلمة فكرة يتوقع بعدها الحديث عن أمور عقلية تتصل بها، لكنه حين يكمل القراءة تتغير لديه تلك القناعة، فكيف تتحول الفكرة العقلية إلى سير مادي محسوس؟ وكيف يسند السير للقلب؟!وما هي الأغيار؟ وهل لها ميادين؟!، إن تحويل العقلي إلى محسوس هو أساس التصوير في الحكمة السابقة، وبذلك يحدث تصور المعنى والتأثر به، ثم إن حذف أداة التشبيه يسرع من انتقال الذهن بين طرفي التشبيه، وكأنهما وجهان لعملة واحدة، وكأن الفكرة هي سير القلب ذاته.

وقد تكون الغرابة والغموض وليدة التكرار والجناس التام، يقول في الحكمة(١٢٧): (كيف تخرق لك العوائد، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد)، فالعوائد الأولى المقصود بها: وجود المواهب والواردات على العبد من الله، والعوائد الثانية المقصود بها: الابتعاد عما يعتاد من الهوى والشهوات ونحوها طلبا لرضا الله، والأنس به، إن ورود الحكمة في ثوب الاستفهام شكل قالبا جديدا لحوار المتلقي، واستفزاز عقله انتظارا لجوابه المعلوم سلفا، إضافة لطباق السلب(تخرق، ولم تخرق)الذي يضع المتلقي في مقارنة بين حقيقة فعله، وإمكانية تحقيق النتائج المرجوة منها.

وكما هو ملاحظ من النصوص السابقة فإن الإيحاء بالمعاني أدي لنوع من الغموض الفني، سبب لذة فنية للمتلقي ناتجة عن مفاجأته وإدهاشه بغير ما يتوقع.

(ب)المفارقة؛ وهي:(شكل من أشكال القول، يساق فيه معنى ما، في حين يقصد منه معنى آخر، يخالف غالبًا المعنى السطحي الظاهر)[١]، ومن هنا اعتمد ابن عطاء عليها لكسر توقعات المتلقي وإدهاشه، يقول في الحكمة(٨٣):(ربما أعطاك الله فمنعك، وربما منعك فأعطاك)، فقد تحول المنع للعطاء، والعطاء للمنع، فالمقابلة بين عطاء المنع ومنع العطاء أنتجت مفارقة، فالله حكيم في فعله، فهو يمنع عن العبد أمرا ليعطيه ما هو أفضل، وربما أعطاه من نعيم الدنيا فكان في ذلك انشغالا بها، فمنع بسببه من نعيم القرب من الله، وهنا وظف ضمير الخطاب في إضفاء الصبغة الخاصة على الحكمة، والإيحاء بأنها ربما تحدث لك أنت، ولكنك لا تدري وجه الحكمة فيها، إن المقابلة هنا تسهم في إحداث المفارقة، وكذلك السجع الناتج عن ضمير المخاطب الذي يوحي بحدوث ذلك النمط من المنع العطائي أو العطاء المنعي للمتلقي دون إدراكه. ويمتد بالمعنى إلى الحكمة(٨٤) فيقول:(متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء)، فالمنع أصبح عين العطاء، وهنا نلمح طريقة ثانية لجذب المتلقي، وهي الاعتماد على الإبهام الذي يستثير المتلقي، ثم ما يلبث أن يكشف له غطاء المعنى شيئا فشيئا، بعد أن يصدم القارىء، ويفتح نوافذ ذهنه؛ ليكون في حالة استنفار، وتيقظ دائم.

ومن المفارقة المرتكزة على المقابلة قوله في الحكمة(٢٨): (ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر)، فالمقابلة بين(غيب وشهادة)، وبين(السرائر والظواهر)انتجت نوعا من المفارقة، وإلا فإن مقصده أن ما كان مستودعا في القلوب والأرواح يظهر في أفعال الجوارح، لكنه انتقى مفردات المعجم الصوفي؛ ليحدث بها تلك المفارقة مرتكزا على المقابلة والسجع.

كما تتجلى المفارقة داخل بنية بعض الصور؛ حيث تنتج من اجتماع الأضداد بين طرفي التشبيه، فتتنزل الأضداد منزلة النظائر والأشباه، ففي الحكمة(١٧٤) يقول: (ورود الفاقات أعياد المريدين)، فكيف تتحول الفاقة إلى عيد للمريد!، ولاحظ ذلك الجمع الذي يوحي بالشمول(الفاقات، أعياد، المريدين)،

[١] -المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة:د.محمد العبد،مكتبة الآداب،القاهرة،ط٢ ،١٤٢٦هـ،٢٠٠٦م ،صـ٥٤

إن القضية ليست خاصة بفاقة محددة، ولا بمريد خاص، ولكنها حالة شاملة لجميع المريدين، ولجميع أنواع الفاقات، كلما وردت عليهم الفاقات تجددت أعيادهم بالتسليم بقضاء مولاهم، وتمام الرضا بقدره.

ويقول في الحكمة(١٧٦):(الفاقات بسط المواهب)، فكيف تتحول الفاقة إلى هبة فضلا عن أن تكون بسط المواهب؟! إن هذا التنافر بين طرفي الصورة في المثالين يحدث صدمة للمتلقي، ويكسر أفق توقعه، ويستثيره لفهم المعنى، وهو ما سعى ابن عطاء الله إليه؛ لتشويق المتلقي وضمان رسوخ الصورة في ذهنه.

والمفارقة قد تكون من خلال مخالفة المألوف المركوز في سوس النفوس، يقول في الحكمة(١٤٧): (متى كنت إذا أعطيت بسطك العطاء، وإذا منعت قبضك المنع، فاستدل بذلك على ثبوت طفوليتك، وعدم صدقك في عبوديتك)، ومن منا لا يفرح بالعطاء، وينقبض بالمنع، هذا في فطرة النفس، لكن السكندري يريد للنفس أن لا تنشغل بشهواتها عن عبوديتها، إن القارىء للقسم الأول من الشرط لا يمكنه توقع جواب الشرط، وأن تلك الفطرة التي فطر الخلق عليها هي دليل الطفولية، وعدم الصدق في العبودية، وهو ما يحدث المفارقة من خلال الاعتماد على بنية الشرط.

ويقول في الحكمة(١١٤): (الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل، والعاقل ينظر ماذا يفعل الله به) إن من يقرأ كلمة(الغافل) يتوقع أن يأتي بعدها الغفلة عن ذكر الله مثلا، لكن المفارقة هنا في العلاقة الدلالية الجديدة التي صنعها ابن عطاء للغافل، وهو الذي يفعل شيئا فطرت عليه النفوس وألفته، فكل إنسان إذا أصبح ينشغل بتدبير أمره، فكيف يكون ذلك هو الغافل؟ إن السكندري يريد من العارف شيئا آخر، ألا وهو الرضا بكل ما قسم له؛ لأنه فعل الله فيه، فلا ينشغل بتدبير دنيا الله فاعل فيها ما يشاء، إضافة لحضور الشرط في النصف الأول من الحكمة، وغيابه من النصف الثاني، مما يوحي بعدم المساواة بينهما، فالغافل إذا أصبح يدبر أمره، لكن العاقل يترك في كل أوقاته جميع أموره لخالقه، واختيار الإصباح لأنه وقت النشاط والحركة، فضلا عن ذلك التوازي بين ركني الجملة الذي سعى إليه السكندري، فصيغة اسم الفاعل واحدة بين(العاقل والغافل)، وتكرار(ينظر وماذا ويفعل)،مع ملاحظة استتار الفاعل، وغياب صيغة الخطاب مما يشير إلى الإعراض عن خطاب ذلك الغافل، وحضور الفاعل سبحانه في النصف الثاني يوحي بتمام ملكه وسيطرته، وحضوره في قلب العاقل وعقله.

ويقول في الحكمة(٧٠):(من رأيته مجيبا عن كل ما سئل، ومعبرا عن كل ما شهد، وذاكرا كل ما علم، فاستدل بذلك على وجود جهله)، إن المتوقع أن من قام بذلك عالم لا جاهل، لكن المفارقة هنا في إضفاء سمة الجهل عليه، فابن عطاء يرى أن العارف لا ينبغي أن يحدث الناس بما لا تدركه عقولهم، وقد دعم دلالة المفارقة الفعل(رأى)الذي يفيد عين اليقين، لكن مع ذلك خالف ذلك العلم الثابت الحقيقة، ثم ذلك الثبوت الذي نلحظه في التعبير بالأسماء(مجيبا، معبرا، ذاكرا)، وصيغة العموم(كل)توحي باليقين والشمول، لكن المفارقة أنه جاهل مع شمول علمه بذلك، إضافة لظلال مفردة(استدل) التي توحي بخطاب العقل ومنطقية النتائج.

(ج)الاستهلال؛ إن فاتحة النص(تزيد النفس بحسنها ابتهاجا ونشاطا لتلقي ما بعدها) [١]، والاستهلال وسيلة فاعلة لجذب المتلقي وتشويقه، وقد اتبع السكندري عدة وسائل لتدعيم ذلك التأثير منها:

-الاستهلال بصيغ تلفت المتلقي لمتابعة الحكمة، وتستفز عقله لمعرفة ما ورائها، فيستهل الحكمة(٤١)مثلا بقوله:(العجب-كل العجب)،ويفتتح الحكمة(٢٦١) بقوله:(الخذلان-كل الخذلان)

-الاستهلال بصيغة الأمر والنهي التي تستثير المتلقي، وتجعل نفسه مستشرفة لمعرفة ما يؤمر به أو ينهى عنه، وحين يستهل الكلام بها فإنها تمثل مزيدًا من الإثارة منذ استهلال الكلام، خاصة حين يكون الفعل المنهي عنه، أو عدم فعل المأمور به من المسلمات الثابتة لديه، وقد مثل الاستهلال بالأمر من مجموع الحكم(٣,٤١% تقريبًا) ،والاستهلال بالنهي نحو(٧,٢% تقريبًا) من الحكم .

---

[١] -منهاج البلغاء وسراج الأدباء : صـ٣٠٩

يقول في الحكمة(٥٨):(لا تفرحك طاعتك)، فهذا النهي المقترن بالخطاب صادم للمتلقي مخالف لتوقعاته، فكيف لا يفرح العبد السائر لله بطاعة، ثم يبين مبررات نهيه قائلًا: (لأنها برزت منك، وأفرح بها لأنها برزت من الله إليك،(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون))، وهو هنا يستند لآليات عدة لبناء الدلالة، منها: التوضيح بعد الإبهام، والتناص، والتعليل، كما استعان بطباق السلب، وبالسجع؛ لجذب المتلقي للنص، إضافة لتكرار(برزت) الذي يوحي بشدة الظهور والانكشاف، ثم الترابط النصي من خلال الضمائر الذي يساعد على متابعة القراءة.

وفي الحكمة(١٦٦) يصادم الاستهلال الثقافة الدينية للمتلقي حين يقول: (لا يكن طلبك تسببًا إلى العطاء منه فيقل فهمك عنه)، فعقيدة جمهور المسلمين أن الدعاء سبب من أسباب العطاء(وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)غافر(٦٠)، إلا أن ابن عطاء الله يسمو لهدف آخر فيقول: (وليكن طلبك لإظهار العبودية، وقيامًا بحقوق الربوبية)، فالدعاء هنا ليس طلبًا للعطاء، ولكنه دعاء لإظهار العبودية لله، والخضوع والذل بين يديه.

وصيغة الأمر كذلك فيها لفت للمتلقي لأهمية الكلام، خاصة حين يصطدم الأمر مع الثقافة العامة للجمهور، يقول في الحكمة(٤):(أرح نفسك من التدبير)، فالجميع يسعون لتدبير شئونهم إلا أن ابن عطاء يسمو بالمتلقي لأفق آخر، وهو التوكل الكامل على الخالق وتفويض الأمر إليه، (فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك).

-الاستهلال قد يكون بالمفردات الصوفية،ومعلوم أن هذه المفردات تحمل بدلالات جديدة مغايرة لدلالتها المعجمية، ومن ثم فهي تخالف توقعات المتلقي من جهة علمه بدلالتها المعجمية التي لا تلبث أن تسفر عن حاق معناها الصوفي مع استمرار القراءة نحو: بسطك(٨٠)، والعارفون(٨١)، والبسط(٨٢)، والعارف(١٠٣)، والزهاد(١٤٦)، والوارد(٢١٧).

-الاستهلال بالاستفهام؛ حيث يوحي بطلب الجواب، ويشرك المتلقي في إنتاج الدلالة، إلا أن المتلقي يفاجأ أن السكندري لا ينتظر جوابه؛ لأن ذلك النمط خرج بالاستفهام عن دلالته لدلالات أخرى، نحو استهلاله الحكمة(١٣) بقوله:(كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته؟) واستهلاله الحكمة(١٦)بقوله:(كيف يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟)، واستهلاله الحكمة (٢١٨) بقوله:(كيف يحتجب الحق بشيء، والذي يحتجب به هو فيه ظاهر، وموجود حاضر؟)، واستهلاله الحكمة (٢٥٣) بقوله:(كيف تطلب العوض على عمل هو متصدق به عليك؟)

-الاستهلال بأسلوب الشرط الذي يجعل المتلقي ينتظر جواب الشرط منذ مطالعة أداة الشرط، وينشط ذهنه لتوقع الجواب قبل الوصول إليه، لكن غالبا ما يخالف الجواب توقعات المتلقي وتأمل ذلك في الحكمة(١٢٣) يقول:(إذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب إليك)، وقوله في الحكمة(١٣١): (لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلا للقبول) ،وقوله في الحكمة(١٣٦):(لو أشرق لك نور اليقين لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا وقد ظهرت كسفة الفناء عليها)، وقوله في الحكمة(١٣٨):(لولا ظهوره في المكونات ما وقع عليها وجود إبصار، ولو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته).

-الاستهلال بنص مقدس، ذلك أن المتلقي دائما يتوقع أن يبدأ المتلقي حديثه بخطاب مباشر، لكن الاستهلال بنص مقدس يخالف التوقعات، ويربط بين ثقافة المتلقي غير الصوفي والمتلقي الصوفي، كما في الحكمة(٣٠)استهل بقوله تعالى: (لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ)، وقد يستهل بلفظة واحدة نحو استهلاله بـ(سبحان) في الحكمة(١٥٦)، أو بحديث نبوي ربما مثل الحكمة كلها كما في الحكمة(٣٧)(كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما كان عليه).

وهكذا استغل ابن عطاء الله استهلال حكمه لتنبيه المتلقي، واستنفار ذهنه من خلال مخالفة توقعاته، مما يدفعه لاستكمال النص، وعند ذلك يشرق المعنى في نفسه، وتتجلى له الدلالة فيتأثر بها، ويتوجه نحو السير إلى خالقة، وهو مقصود السكندري من حكمه.

الخاتمة وبها أهم التوصيات والنتائج :

لقد قامت الدراسة بمحاولة التعرف على بعض الأسباب التي يسرت رواج الحكم العطائية وانتشارها على مستوى شرائح متباينة من المتلقين، وأزمنة مختلفة وبيئات متنوعة، وأهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة ما يلي:

١-أن الحكم العطائية منذ ولادتها استشرفت للمتلقي، كما أنها لم تكتف بخطاب المتلقي الصوفي، ولكنها تعاملت مع طوائف متباينة من المتلقين، ومن ثم تنوعت وسائل الاتصال لتنوع طبقات المتلقين.

٢-تبين من الدراسة توفر عوامل أسلوبية في الحكم العطائية كان لها أثرها على المتلقي، فقد أسهمت الجوانب الصوتية في سهولة حفظ الحكم وسيرورتها، كما ساعد انتشار المعجم الصوفي وبعض العناصر التركيبية على سهولة تداول الحكم وانتشارها أيضا.

٣-إن غالبية شراح الحكم العطائية على تنوع مشاربهم وتباين توجهاتهم أدركوا بصورة أو بأخرى المناسبة بين الحكم بصفة عامة، ومن ثم لم يسعوا لخرق الترتيب الذي وضعه السكندري في شروحهم، بل إنهم حاولوا تفسيره، وقد وقفت الدراسة على عالمين من عصرين متباينين وتوجهين مختلفين وهما: الإمام زورق الصوفي المالكي الوجهة من علماء القرن التاسع، وسعيد حوى العالم السني من علماء العصر الحديث.

٤-لقد حرص ابن عطاء الله على حجاج المتلقي من خلال عدة آليات، منها: توظيف صيغة الخطاب، وطرائقه في بناء الدلالة، والتدرج في تمرير المعنى له لضمان سلامة الفهم، وتوجيه تساؤلات إليه لإعمال ذهنه، واستنطاقه بمكنون الدلالة... .

٥-اعتمد ابن عطاء على كسر توقعات المتلقي أحيانًا؛ ليحدث له صدمة تدفعه لاستمرار متابعة النص للوقوف على مراد الحكمة، ومن وسائله في ذلك: الغرابة والغموض، والمفارقة، وتوظيف الاستهلال غير المتوقع لكسر توقعات المتلقي.

٦- على الرغم من غرابة المعجم الصوفي عموما إلا أن ابن عطاء الله اختار معجمه بدقة مما سهل له الوصول لعقل المتلقي، وقد وظف ذلك المعجم ليستثير به المتلقي من خلال صور عدة، فقد شكل نمطا من الغرابة حينا، ووظفه في إحداث المقابلة والمفارقة حينا آخر، كما استخدمه لإضفاء الإيقاع الصوتي أحيانا....إلخ.

وختامًا توصي الدراسة بما يلي:

(أ)العناية بدراسة الخطاب الصوفي؛ حيث تتسم الدراسات النقدية الخاصة به بالندرة؛ لصعوبة لغته وغرابتها عن المألوف .

(ب)الاهتمام بدراسة وسائل المبدع في جذب المتلقي في الخطاب الصوفي الموجه للجمهور- بصفة خاصة- لأن ذلك سيكشف النقاب عن الكثير من جماليات النصوص الصوفية، وسيعيد قراءة تلك النصوص.

(ج)توصي الدراسة بدراسة الحكم بصفة عامة، وعوامل ذيوعها وأثرها على المتلقين.

أهم المصادر والمراجع

-الإبداع الشعري وكسر المعيار رؤى نقدية: د.بسطام قطوس، لجنة التأليف والتعريب والنشر، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ٢٠٠٥م.

-الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة: محمد بن علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: د.عبد القادر حسين، دار غريب، القاهرة، ١٤٣٢ه-٢٠١١م.

-الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م، جـ١.

- إيقاظ الهمم في شرح الحكم: العارف بالله أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، تقديم ومراجعة: محمد أحمد حسب الله، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

- البديع تأصيل وتجديد: منير سلطان، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٦م.
-البرهان في وجوه البيان: أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب، تحقيق: د.أحمد مطلوب، د.خديجة الحديثي، جامعة بغداد، ط١، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
-بلاغة الخطاب وعلم النص: د.صلاح فضل، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١، ١٩٩٦م.
-تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: ابن أبي الإصبع، تحقيق: د.حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.
-التلقي والإبداع قراءات في النقد العربي القديم، محمود درابسة، دار جرير، عمان، ط١، ١٤١٣ه - ٢٠١٠م.
-جماليات الإشارة النفسية في الخطاب القرآني: صالح ملا عزيز، دار الزمان للطباعة والنشر، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠١٠م.
- الجنى الداني في حروف المعاني: أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي، تحقيق: د فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
-الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط٢، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- حكم ابن عطاء الله: شرح العارف بالله الشيخ زورق، تحقيق: الإمام عبد الحليم محمود، مطابع الشعب، القاهرة، ١٤٠٥ه-١٩٨٥م.
- الحكم العطائية: للشيخ تاج الدين أحمد بن عطاء الله السكندري، طبعة دار السلام، القاهرة والإسكندرية ، مصر، ط٣ ، ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م.
- الحكم العطائية والمناجاة الإلهية للإمام تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري، صححها وعلق عليها: حسن السماحي السويدان،د,ن، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.
- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٥ ،٢٠١١م ،جـ٣ .
- الخطاب الحجاجي آلياته وظائفه في مقالات نبيل عبد الفتاح: إسلام صلاح الدين محمد، سلسلة كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٢٢م.
-الخطاب الحجاجي في كتابات محمد عبد الله دراز، د.ذيب بن مقعد العصيمي، دار النابغة، طنطا،١٤٤١هـ.
- الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر:د.محمد فتوح أحمد،دار المعارف،مصر،١٩٧٧م.
-روضة الفصاحة:أبو منصور الثعالبي،تحقيق محمد إبراهيم سليم،مكتبة القرآن،القاهرة،١٩٩٤م.
-شرح الحكم: محمد بن إبراهيم المعروف بابن عباد النفزي الرندي على متن الحكم، للإمام المحقق أبي أبي الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندري، وبهامشه شرح المحقق: عبد الله الشرقاوي، دار الفكر، د.ت، د.ن.
- شرح الحكم العطائية:عبد المجيد الشرنوبي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م.
- شرح الحكم العطائية: محمد حياة السندي المدني، تحقيق: نزار حمادي، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣١هـ-٢٠١٠م .
-شرح الحكم العطائية المسمى بـ(تلخيص الحكم) : نور الدين البريفكاني، تحقيق: محمد أحمد مصطفى الكزني، الناشر العربي، القاهرة،١٩٨٠م.
-الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها:أبو الحسن بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي، تحقيق د.عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٤ه-١٩٩٣م.

-علم لغة النص النظرية والتطبيق: د.عزة شبل، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩ م.
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق: د.صبحي إبراهيم الفقي، دار النابغة، القاهرة، الإسكندرية، ط١ ، ١٤٣٦ه-٢٠١٥م.
- علم النص مدخل متداخل الاختصاصات: تون أ. فان دايك، ترجمة وتعليق : د. سعيد حسن بحيري، دار القاهرة، القاهرة ، ط٢، ٢٠٠٥م.
- في لسانيات النص: أيمن محمود موسى، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ٢٠١٥م .
- في النص الأدبي دراسات أسلوبية إحصائية: د.سعد عبد العزيز مصلوح،عالم الكتب، القاهرة، ط٣ ، ١٤٢٢هـ ، ٢٠٠٢م .
- كتاب أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، قرأه وعلق عليه: محمود محمد محمد شاكر، دار المدني، جدة، المؤسسة السعودية، مصر، ط١ ، ١٤١٢ه-١٩٩١م.
-كتاب الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط ، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م، جـ٨.
-مذكرات في منازل الصديقين والربانيين من خلال النصوص وحكم ابن عطاء الله السكندري: سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، الإسكندرية، مصر، ط١٠، ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م.
-معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
-المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة: د.محمد العبد، مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٦م.
-منهاج البلغاء وسراج الأدباء: أبو الحسن حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م.
-هدية العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين: إسماعيل باشا البغدادي، مؤسسة التاريخ العربي، د.ن، د.ت، جـ١.

البحوث والرسائل

- الإحالة في نحو النص دراسة في الدلالة والوظيفة: د.أحمد عفيفي ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية بعنوانالعربية بين نحو الجملة ونحو النص، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة ، ١٤٢٦ه- ٢٠٠٥م.
-بلاغة الخطاب القرآني، وأثرها في المتلقي: عاشور توامة، ضمن مجلة قراءات، قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، بسكرة، الجزائر، العدد الثامن، ٢٠١٥م.
- تطبيق نظرية التقبل على النص الصوفي-تدبرًا لمعانيه وكشفًا لمغاليقه-:أسماء خوالدية، مجلة مختبر اللغة الوظيفية، مختبر اللغة الوظيفية جامعة حسيبة بوعلي الشلف-الجزائر، عدد٢، مارس٢٠١٦.
- التماسك النصي في بنية حكم ابن عطاء الله السكندري: محمد محمود عيسى محاسنه ، مخطوط رسالة ماجستير بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة آل البيت،الأردن، ١٩٩٣م.
-التماسك النصي في شعر علي بن الجهم دراسة نحوية دلالية: سميرة محمد إدريس عمور، مخطوط رسالة دكتوراه، كلية دار العلوم، القاهرة ، ٢٠١٢م.
- الحجج الجاهزة وطاقاتها الإقناعية، نقائض جرير والفرزذق أنموذجًا : فريدة بن عاشور، ضمن مجلة مباحث الحجاج بين التنظير والإجراء، بحوث علمية محكمة في الحجاج، مجلة مختبر اللغة والتواصل، بلغيزان، الجزائر، ٢٠١٥م.
- عودة إلى الموسيقى: نعيم اليافي، مجلة التراث العربي العدد ٢٥-٢٦، اتحاد الكتاب العرب، تشرين وكانون الثانى(أكتوبر ويناير) ١٩٨٦م– ١٩٨٧م، (صفر وجمادى الأولى)١٤٠٧هـ.
-نحو النص دراسة في الدلالة والوظيفة ضمن كتاب المؤتمر الثالث للعربية والدراسات النحوية. كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٤٢٦ه- ٢٠٠٥م.